سحر توفيق

بيت العانس

قصص قصيرة

سحـــر توفيـق

بيت العانس

(قصص قصيرة)

يناير – ٢٠٠٦ م
الـدار للنشر والتوزيـع

arabworldbooks.com

اســــم العمـــــل : بيت العانس

تــــــــــأليف : سحــر توفيــق

تصــميم الغــلاف : عمرو الكفراوى

الطبعـــة الأولـــى : يناير - ٢٠٠٦ م

الطباعــــــــــة : مطبعة آتيليه تاتش - المحروسة

الناشــــــــــر : الدار للنشر والتوزيع

تليفــون - فــاكس : ٣٥٣١٣٤٣ (٢٠٢)

بريـــد إلكترونـــى : eddar_press@yahoo.com

www.geocities.com\eddar_press

المــــدير العـــام : محمـد صـلاح مـراد

رقـــم الإيـــداع : 2006 / 1997

التـــرقيم الـــدولى : I.S.B.N. : 977-17-2949-7

arabworldbooks.com

وإذا ترحل، وتذبل الزهرة النادرة . .

. . فمن سيفصح عن معانى الكلمات ؟

وإذا أغلقت الكلمات أبوابها . . .

. . فمن يبوح لى بأسرار الحروف ؟

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

الـزمـن يمُـرُّ

أقف أنتظر الحافلة، أراها تأتى من أعلى الطريـق، أتعـرف على أرقامها، تتحرك أقدامى فى مكانها بصبر نافذ، وأخيـرًا تقف أمامى، أطلع إليها، أقف أو أجلس. تقطع الطريق.

أرقب البيوت والشـخوص وإعلانـات الشـوارع ولافتـات المتاجر، وأسمع الضجيج، والحافلة تقطع الطريق، أرقب كل ما يعبرنا بصبر نافذ.

وبعد سنوات أنظر فى المرآة، فأرانى قد تغيرت.

الهرم ــ ١٩٩٤

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

كــافـورتـان

عندما تحاببنا، خرجنا من المدينة المزدحمة، وعنـــد القنـــاة الصغيرة فى المكان البعيد، بنينا جدرانًا أربعةً.

كان ذلك فى الزمن البعيد، عندما كانت الأشجار أعلى قامـــة من الديار، وقبل أن تعلو المبانى وتسدُّ عين الشمس، وقبل أن تتقزم الأشجار وتصبح غريبة فى الطرقات.

شجرتا كافور عند مدخل البيت، صغيرتان مثلما كنا. وعندما أصبح أول أيامنا هناك، ونظرت من النافذة فى الصباح إلـــى الاتساع البادى خلفها، رأيتهما. صغيرتان، قصيرتان، كانـــت الشجرتان فى أيامهما الأولى هناك أيضا.

كانت الأرض حولنا مليئة بالخضرة، والأشجار كثيرة فى كل مكان، لكن الكافورتين القائمتين أمام بيتنا كانتا صغيرتين.

كبرت الشجرتان، وكبرنا، وضعت إحدى الشـــجرتين أحـــد أذرعها على بيتنا تحتضنه.

arabworldbooks.com

كان شارعنا يخلو من ضجيج السيارات تقريبا، خاصة عند المساء، وكانت الشجرتان تطلان علينا من نافذة المنزل الغربية، وكان بيننا كلام كثير.

فى كل ليلة نتحادث كثيرا، وتتحادث الكافورتان أيضًا. عندما تمر نسمات الهواء الصيفية تتحادثان برقة وينمو بينهما الحب والسلام، وعندما تمر رياح الربيع المتربة، تحملان الأتربة بصبر وجلد حتى نغسلهما ذات بكور، أو تغسلهما أمطار الربيع.

لم يشاركنا فيهما سوى زوجين من الكروان سكنا فروعهما الكثيرة، لم يكن من السهل رؤيتهما، لكن صوتهما كان يسمع فى الليل الساكن، ولم أعرف أبدًا إن كانا يعيشان سنة بعد سنة، أم أن هناك زوجين جديدين من أبنائهما يسكنان إحدى الشجرتين كل عام.

لكن الشجرتين كانتا تصونان زوج الكروان، وتحنوان عليهما، وتخفيانهما.

وكانتا أيضًا تطلان علينا، وعندما كنا نتعانق ونتحاب فى الليل، تتهامس الشجرتان بأسرارنا، ولا يسمع همسهما أحد.

arabworldbooks.com

لكن المكان حولنا ضاق يومًا بعد يوم، وسكنه الناس، ونمت على جانبى الطريق مبان، ظلت تعلو وترتفع حتى أصبحت ذات ظلال كثيفة، أكثف من ظلال الشجر. لذلك قطع الناس معظم الأشجار، وأخذوا يلقون بنفاياتهم فى القناة الصغيرة، ثم ردموها لأنها لم تعد تليق بالطريق الجديد.

سكن شارعنا كثيرون، فى البداية كان هناك ذلك اللاعب بأحد الملاهى، وكان يعود متأخرًا فى الليل، وعندما نكون نائمين، يصرخ بوق سيارته عندما يعود موقظا الناس بلا حياء. وأصبح هذا الصوت أليفًا فى شارعنا، مع صوت الكروان واهتزاز الشجر فى الليل.

ثم جاء سكان آخرون، وكان منهم تجار، وعمال، ومدرسون، وكان كل منهم يصنع صوته الخاص المرتفع فى الطريق، حتى يصبح بعد وقت صوتًا أليفًا فى شارعنا.

وكان هناك رجل يصيح فى أبنائه قائلا: أريدكم رجالاً، لا أريد أن أسمع شكوى أحدكم.

وكانت هناك تلك المرأة التى تزوجت من رجل يقيم بعيدًا، ولا يأتى إلا كل أسبوع مرة واحدة، وأمها تترك له البيت. فلما وضعت زوجته طفلاً، توقف عن المجىء.

arabworldbooks.com

وكان من سكان الشارع أيضا أحد الضباط الذى اعتاد أن يأتى بسيارة عسكرية توصله إلى باب بيته، وتقف فى منتصف الطريق، ينام فيها اثنان من الجنود بانتظار طلبات الضابط.

أخذ السكان يتكاثرون، وأصواتهم تزداد قربا وشراسة، وكلما زادوا عددًا، قلت الأشجار وبدأت تختفى. وعندما خلا المكان حولنا من الأشجار الأخرى، رأى الساكنون فى الديار التى كانت تتكاثر حولنا أن هناك شجرتين، فى الحقيقة لم يكن قد بقى غيرهما فى الشارع كله، وفى الخريف تلقيان بأوراقهما الذابلة لتستعدان لنماء جديد.

وعندما كانت السيارة العسكرية تسد الطريق، كان يبدو ألا طريق هناك إلا من خلال الشجرتين، لكنهما كانتا هناك.

قال الساكنون وهم يلقون نفايات بيوتهم على الطوار: "هاتان الشجرتان لابد من قطعهما."

كانت الشجرتان تلقيان بالأوراق الذابلة، ولم تكن الرياح قوية بما يكفى لتذروها بسرعة، قال الساكنون: "هاتان الشجرتان كثرت بقاياهما."

arabworldbooks.com

وقفنا ندفع عن الشجرتين الأيدى الراغبة فى قطعهمــا، قــال الساكنون غاضبين: "هاتان الشجرتان كثرت نفاياتهما."

وأشار أحدهم ــ والذى كان يعمل بأحد الملاهى الليليــة ولا يعود إلا متأخرًا جدا فى كل ليلة ــ أشار بيد غاضــبة نحــو الأفرع العالية قائلاً: "وتخفيان أيضا الطيور التى توقظنا فــى الليل بأصواتها المزعجة."

بكل الطرق جربنا أن نخبرهم بأن الشجرتين لم تذنبا فى حق أحد، ولكن لم يكن هناك حل لهم إلا قطع الشجرتين، وحــين وقفنا بشدة نمنع ذلك، استخدموا سلاحًا لا نقدر على مقاومته، قال ذلك الرجل لأولاده: "هل ترون تلكما الشجرتين؟ أريكــم رجالاً، ولا أريد أن أسمع شكواكم."

كان الأولاد يلعبون ويقــذفون بالحجــارة ويعبثــون بلحــاء الشجرتين، حتى أصبحنا فوجدنا إحداهما قد فقدت لحاءها كله لمسافة متر من الأرض. تلك أمضت أسابيع طويلــة تعــانى يوما بعد يوم.

جربنا أن نخفى الجذع العارى بطرق عديــدة، ولــم يــنجح علاجنا فى جعلها تعيش، تناقصت أوراقها، وأثمرت بــذورًا كثيرة، ملأت الأرض حولها بالأوراق الذابلــة المتســاقطة.

arabworldbooks.com

والبذور الكثيرة التى لم يعد لها فائدة على طبقات من الإسفلت الأبكم، لكن من كان يمكنه أن يخبرها بذلك. ماتت ببطء، كما مات واحد منا ببطء كذلك. وعندما ماتت، جف عودها، وتعرت فروعها، ووقفت عارية، كنت أرتعش فى الليالى الباردة حين أنظر إليها. ثم بعد عدة أسابيع أخرى مال جذعها حتى أصبح منتظرًا سقوطها بين يوم وليلة. زعق الساكنون الجدد غاضبين وقالوا: "هل تتركونها تسقط أمام رياح الخريف وتؤذى أطفالنا؟"

خرجنا نقطعها بأيدينا، ونوسدها جانب الطريق، حتى نقطع منها، يوما بعد يوم، خشبًا لجلب الدفء فى الشتاءات الباردة.

وفى الربيع التالى كانت الشجرة الأخرى وحيدة حزينة مثلى، فاستخدم السكان علاجًا أسرع ورموا بعض الجاز القاتل عند جذورها، وفى ليلة واحدة، ليلة واحدة ماتت. فى المساء كانت لا تزال تهمس وتتمايل، وفى الصباح كانت ذابلة وقد تهدلت أوراقها.

ولم يبق فى شارعنا إلا بقايا البيوت القذرة تتصاعد روائحها، وتعلو طوابقها، حتى تصبح أكبر من كل الأشجار، ولا تذروها الريح.

القاهرة ــ ١٩٩٨

arabworldbooks.com

ثـلاث أورّات وفـرخ وحيـد

أحيانًا، من مكمن لا نتوقعه، يخرج لنا عفريت نعرفه، وإن لم نحتفظ به فى أذهاننا فى لحظات اللامبالاة التى تمر بنا كثيرًا.

طاف بخيالى هذا الخاطر عندما وقفت فى ميدان الجيزة وهو فى حالة هدوء نسبى بعد الظهيرة. وعنـدما أقـول "هـدوء نسبى"، فهذا لا يعنى أنه هدوء بأى حال من الأحوال.
عند مطلع الكوبرى، كان منادى الموقف لا يكل مناديا المارة:
ـ حلوان يا سيدى؟ حلوان؟

وقفت ثلاث فتيات يرتدين العباءات السوداء الرخيصة الـثمن المستوردة من بلاد البترول، التى استوردتها بـدورها مـن بلدان الشرق الأقصى، التى نمت أسرع من بلداننا، التـى لا تزال تخطو خطواتها المتعثرة فى سبيل النمو، الذى عوقتـه أشياء لا مجال لسردها الآن. تلك الاسطوانة المكررة التـى تلف فى دائرة لا تنتهى من أدوات الوصل. ما علينا، رغـم الزى الغريب فقد كانت كل منهن تمسك بجانب ثوبها وتلمـه إلى صدرها مثلما كانت تفعل مع الملاءة اللف فـى الغالـب أسلافهن منذ أجيال قليلة. رءوسهن حاسرة، لـم تكـن تلـك

arabworldbooks.com

العباءات لتغطيها أصلاً، فقد صُنعت ليُلبس معها غطاء رأس من ذلك الطراز الغريب الشبيه بأغطية الرأس عند الجوارى فى القرون الوسطى، التى استعدنا تراثها فى الـــزى والفكـــر أيضا فى أيامنا هذه نتيجة فشلنا المتكرر فى الوصـــول إلـــى صيغة تناسب العصر ولا تتعارض مـــع قروننـــا الوســـطى المقدسة.

لم يكن ثمة شبه بين أى منهن والأخرى، لكن الطريقة التـــى يتحدثن ويتحركن بها جعلتنى أحدس أنهن جارات أو صديقات من منطقة واحدة، فأنا أظن أن الانتماء إلـــى أحيـــاء معينـــة نعيش فيها لفترة طويلة يكسبنا طابعًا أقرب إلـــى التماثـــل أو التشابه فى الطباع وربما الأخلاق إلى حدٍ ما.

دخلت إلى السيارة، ووجدت مكاناً خاليًا بجوار إحدى النوافذ. ألقيت نظرة إلى الميدان أتأمل بنوع مـــن الرضـــا "هـــدوءه النسبى". والواقع أننى لا أظـــن انطـــلاق الســـيارات فـــوق الكوبرى العلوى بسرعة غير عادية بالنسبة لمثل هذا المكان المزدحم يصلح تعبيرًا عن الهدوء، لكنه دلالة على "هـــدوء" حركة السيارات بمعنى أنها أقل عددًا من أوقات الذروة التى تسير فيها ببطء شديد متزاحمة وقد اشتد تـــوتر الأعصـــاب،

arabworldbooks.com

وازدادت فرص حوادث الاصطدام الصغيرة الناتجة عن فقدان الصبر.

انتزعتنى من التأمل ضحكة أنثوية صريحة، كانت إحدى الفتيات تضاحك فتى من صبيان الموقف، وكانت هذه تمسك بيد ولد صغير لا يزيد عن أربع أو خمس سنوات، ولنفترض أن اسمه حودة، والواقع أننا لكى نفهم هذا الموقف الذى حدث فى الموقَف يجب أن نعطى لكل امرأة منهن اسمًا أيضًا، وسأفعل ذلك فى الوقت المناسب. لكن لنرجع إلى مشاهدتنا للحدث، كان حودة يقف وسط النساء الثلاث حائرًا، ولكن نظرته تلمح إلى إحساس قوى بمكانة لا منافس له فيها، ينظر بعينين سوداوين متسعتين، ويبتسم سعيدًا فى سذاجة بلهاء. بينما كانت "إحداهن" (سوف نطلق عليها سنية)، كانت سنية تضاحك أحد صبيان الموقف، الذى كان يمتدح "جمالها"، ويبدو وكأن هذا المديح يدغدغها فتضحك بسعادة.

أما الثانية، ولنطلق عليها نبوية، فكانت فى حالة غيظ مكتوم وهى تشاهد هذه المداعبة التى لم تكن تبدو بريئة جدًا، صاحت بها نبوية فى صوت حانق: ياللا ياختى، العربية دى كمان ها تتملى!

arabworldbooks.com

قال صبى الموقف (ما رأيكم باسم مــن الأســماء الشــهيرة بصبيان الموقف؟ مثلاً "عبود"، آه، إنه اسم الموقف الشــهير، لكن لا بأس به، فسوف يؤدى لنا مهمة طيبة) قال عبود:
"دقيقة واحدة .. اشربوا حاجة ساقعة!"

كانت الثالثة (والتى سأدعوها هنية، ولنلاحظ أننى حاولت أن أجعل الأسماء الثلاثة التى أطلقتها علــى الفتيــات مناســبة لشخصية كل منهن، بالإضافة إلى أنها أسماء متوازنة، لتــدل على ما بينهن من علاقة أحاول فهمها) كانــت هنيــة تقــف بجوار سنية ضاحكة أيضًا، ولكن ضحكها كان أقل ضجة من ضحك سنية، تتابع مغازلة الصبى لسنية باســتمتاع، وربمــا توقن أن نهاية هذا الغزل ستكون مفيدة، وسينوبها من الحــب جانب.

قالت سنية، وكانت حسناء نوعًا، سمراء، لامعة البشرة، تضع أحمر شفاه ثقيلاً وترتدى حول عنقها ورسغيها أكسسوارًا من النوع الرخيص، بينما كانت تمتلك جسدًا ممتلئًا ويميــل إلــى الطول، ولا داعى للإطالة فى وصف الأرداف الثقال وما إلى ذلك مما يبرع فى وصفه الرجال، قالت سنية:
"حاجة ساقعة إيه؟ مش كفاية انت؟"

arabworldbooks.com

ضحك عبود:
"أنا ساقع يا بت؟ دانا سُخن قوى!!"

ولكن هنية لم يكن يرضيها ذلك أبدًا، فلكزت سنية بكوعها، وقالت باسمة مورطة الفتى:
"انت عازمنا؟"

قالت نبوية، والتى كانت تحظى بجسد بعيد كل البعد عن التناسق:
"بلا مياعة فارغة انتى وهيه، ياللا نركب!!"

قال عبود:
"تعالوا، والنبى لاعزمكو!"

تحرك عبود ممسكًا بذراع سنية، وهى لا تترك حودة من يدها، بينما وقفت نبوية الغاضبة تتميز غيظًا بجانب السيارة. وأخيرًا قررت أن تحرن ولا تشترك فى هذه الوليمة، فاتجهت للحاق بالسيارة. صعدت إليها وانحشرت بجسدها فى الممر الضيق تشق طريقها إلى المقعد الخلفى، الذى كان يجلس فيه أحد الركاب بالفعل. بينما عبر الآخرون نهر الطريق متوجهين إلى كشك على مقربة من الموقف، فى لحظة عبور سيارة مسرعة جفلوا لها.

arabworldbooks.com

أرأيت ما أعنى؟ "هدوء" هنا دلالة على السرعة، وعكسها هو الدلالة على البطء، وهو ما آل إليه حال معانى الكلمات فـــى عصرنا الملوث بكل شيء.

بعد لحظات عادت سنية وهنيـــة ومعهمـــا حـــودة، وبينمـــا يصعدون إلى السيارة، قالت نبوية:

"والله لاقول للمعلمة على المياعة دى كلها، تعالى يا واد انت هنا."

وجذبت حودة بعنف إلى جوارها، جلس فى سكون وهــدوء، أحاطته بذراعها قائلة بخشونة:
"انت طبعًا شاهد على اللى حصل."

التصق الصبى بها وكأنه لا يصدق لمحة الحنان التى أفــرط ذراعها فى إحاطته بها، وقال بخنوع:
"طبعًا."

قالت سنية بغضب:
"أنا يا واد؟ شاهد عليا؟ أنا؟ أمك؟"

قال بغلّ:
"أيوة، شاهد عليكى."

arabworldbooks.com

قالت نبوية:

"طبعًا، انتى عاوزاه يسكت لك وانتى بتتمايصى مع الواد بتاع الموقف؟"

كانت السيارة قد امتلأت بالزبائن وبدأت فى التحـرك، لكـن صوت المرأتين ظل عاليًا، أما هنية، والتـى كانـت تبـدو راضية الآن، فقد حاولت تهدئتهما، قائلة:

"يا اختى انتى وهيه بلا خيابة، على إيه ده كله."

لكنهما لم تلتفتا إليها، فنظرت إلى حودة قائلة:

"تعالى يا واد جنبى، سيبك منهم الغَجر دول."

انتقل حودة فورًا وبلا إبطاء إلى جوارها، نظرت نبوية إليـه فى دهشة وغضب:

"آه يا جبان، انت يا واد انت قلاب، آه منك."

قاطعتها سنية:

"خليكى معايا هنا، يا صايعة يا خايبة يا ..."

استمرت المرأتان فى تبادل الشتائم وصاح السائق بهما:

"خلاص خلصنا، كفاية كدة انتى وهيه، وجعتوا دماغنا."

وكانت هذه هى الفرصة التى تنتظرها المرأتان:

arabworldbooks.com

"خليك فى حالك يا روح امك، ما احناش ناقصينك."

قال غاضبًا:

"والله العظيم ان ما انتهيتوا لاكون انا اللى قايل للمعلمة."

كنت أظنه سيعاقبهما عقابًا أشنع، لكن فيما يبدو أنه هو نفسه كان على معرفة بهما. من أعجب ما رأيت فى هذا المشهد أن حودة الذى يبدو فى حالة خنوع كامل لنبوية، وهو ابن لسنية، ثم تمرد عليهما كلتاهما وارتمى فى حضن هنية، هذا الصبى كان يتصرف وكأنه دلوعة النساء ولعبتهن. وفجأة انطلقت سنية فى البكاء دون سابق إنذار، وهى تقول:

"كدة برضه؟ ما كانش العشم يا حودة."

ومصمصت نبوية شفتيها ولوت وجهها وهى تقول:

"ياختى، بلا خيبة، ما تسيبى الواد فى حاله، بلا مياعة فارغة."

لكن حودة لم يتردد، وانتقل إلى حضن أمه سنية وهو يبتسم فى بلاهة.

كانت السيارة تقترب من مكان نزولى، والمشهد وصل إلى ذروة مناسبة، فأشرت إلى السائق بالوقوف. سرت فى الطريق إلى بيتى، وقد ملأنى شعور غريب بقسوة الحياة. من

arabworldbooks.com

هؤلاء؟ هل يمكنني أن أكمل الحدوتة لنفسي؟ ربما هن عاهرات، والمعلمة هذه هي القوادة التي تشغلهن. وحودة، من هو؟ هل له أب معروف؟

وربما تكون الحكاية مختلفة، ربما هن مجرد نساء من أحد المجتمعات العشوائية الجديدة، التي تربي في أبنائها نوعًا من السلوكيات الحادة، وفي هذه الحالة لابد أن تكون سنية قد انفصلت عن زوجها أو ترملت، ولابد أن المعلمة هي شخصية تدين لها النساء كلهن بالاحترام لسبب ما، ربما يعملن لديها، ربما هي صاحبة مقهى. مقهى؟ ولم لا؟ لم يعد المقهى عمل رجالي تمامًا كما في السابق (وهل كان عملاً رجاليًا تمامًا في السابق؟ أشك). وربما هي صاحبة رأس مال في السوق وتعطيهن البضاعة التي يتصرفن ببيعها.

لا يهم ما هي الخلفية التي ستظل بالنسبة لي لغزًا ربما أجد له حلاً في يوم من الأيام، ولكن المؤكد أن هذا الصبي حودة، كان يعيش وحده في مجتمع من النساء، وأن هؤلاء النساء كن ينظرن إليه كشيء جميل وعلى قدر كبير من الأهمية، وأنهن يعتبرنه ملكية عامة بينهن.

سرت أفرد صدري وأتشمم الهواء المعبأ برائحة العادم والأتربة التي تثيرها السيارات بلا توقف، تحت أشجار

arabworldbooks.com

تراكمت على أوراقها تلك الأتربة الممتزجـــة بـــذلك العـــادم فتحولت إلى مادة لزجة ذات لون أسود كالح تلتصق بأســـطح الوريقات الخضراء. فى طريقى إلى بيتى المتهالك فى ذلـــك الشارع البعيد.

القاهرة ـــ ٢٠٠٢

arabworldbooks.com

السنترال الآلى

وقف أمام تمثال رمسيس النائم هناك، وقدماه مبتورتان، وعند باب المتحف تقف نفرتارى، صغيرة، بديعة تتفجر بالحيوية، عيناها أحلى من عينى بائعة الفجل التى أغرم بها فى شبابه، شفتاها تنمان عن المكر، رغبة فى البراءة، ولكن هيهات، أنت نائم هنا والدنيا تتغير، السائحة الشقراء تنظر إلى نفرتارى ضاحكة تشمت فيها.

جلس فرج على مقعد الحارس الذى كان واقفا بجوار الباب، ارتدى جرجس البدلة الشتوية اليوم فقط، لقد فاجأتهم السيول قبل الموعد بيومين، وانخفضت درجة الحرارة. كانت زوجته قد أعدت له البذلة الشتوية لكنه لم يستطع أن يرتديها إلا اليوم، حيث موعد ارتداء الشتوى لم يكن قد حل بعد، كان فرج يحدق فى التمثال عندما قال له جرجس:
"ما بالك اليوم تبدو مهموما يا فرج؟"

لم يجب فرج، بدا وكأنه لم يسمع، السيول أغرقت القرية، الشوارع المتربة تحولت إلى وحول لزجة يصعب السير فيها، الأحذية، أو الأقدام أحيانا، تنغرس فى الطين ولا تخرج منه

arabworldbooks.com

إلا حاملة بعضه، تثقل ويصعب الخطو، وأحيانا، حدث مرات عديدة. تخرج الأقدام بدون ما كان يحميها من حذاء أو بُلغة. آه، البُلغة انغرست فى الوحل ولم يستطع إخراجها إلا بعد عناء شديد، وتحولت ثيابه وأكمامه إلى وحل وامتلأت يداه به وهو يحمل البلغة ويجاهد للخروج منه، وعندما وصل إلى الطريق الإسفلتى حاول أن يجد شيئا يجلس عليه، ولكن حتى الحجارة البيضاء الكبيرة التى كان بعضها موجودا على جانب الطريق، والتى كان البعض يستخدمها كمقاعد خاصة فى العصارى الخريفية، كانت تمتلئ من آثار مسح الأيدى والأحذية من الطين العالق بها، اتجه إلى المسجد القريب ودخل الميضأة، أمضى ما يقرب من نصف ساعة وهو يغسل قدميه والبلغة، ثم يديه، ابتلت أكمامه وابتلت سراويله، داخله إحساس بالبرد وأحس بجلده يقشعر وهو يشمر ليتوضأ، دخل المسجد، كان الشيخ عبد الجواد جالسا ومعه بعض رجال القرية وقد وضعوا بعض القوالح فى الراكية وأوقدوها وجلسوا حولها يستدفئون، دعوه فجلس معهم يجفف ما ابتل من ثيابه.

كان الوجوم يخيم على القرية منذ بداية السيل، لقد أصيب أهل القرية جميعا بوجه أو بآخر، صعق الماس الكهربى ثلاثة من

arabworldbooks.com

أبناء القرية قبل أن تنقطع الكهرباء تماما ويسود الظلام الدامس، تنهد الشيخ عبد الجواد:

"الحمد لله على كل حال."

وهمهم الرجال بحمد غير واضح الكلمات، ولكن عوض أضاف:

"نعم، الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه."

قال الشيخ عبد الجواد:

"يا رجل، نحن أحسن حالا من غيرنا، ألم تر ما حدث فى الصعيد وغيرها؟"

تنهد عوض:

"وما زاد الطين بلة أن تليفونى انقطعت عنه الحرارة، وأبلغت السنترال فلم يصلحوه، أريد أن أتصل بأقاربى لأطمئن على أحوالهم بعد الكارثة."

نظر الشيخ عبد الجواد فى وجهه وقال:

"هناك تليفونات كثيرة تعمل يا أخى."

قال عوض متنهدًا:

"نعم، كم كنت تنفعنا فى هذه الظروف يا عم فرج."

arabworldbooks.com

نظر فرج إليه بغباء، فقال:
"لقد انقطع الاتصال التليفونى فى بعض البيوت، هل تليفونكم يعمل؟"

هز فرج رأسه فى أسف قائلا:
"لا، كنت أريد الذهاب إلى البدرشين لأبلغ السنترال."

ابتسم الجالسون جميعا ابتسامة واهنة وقال الشيخ:
"أنت تبلغ السنترال يا فرج؟"

وقال عوض:
"فرج سنترال يبلغ السنترال." ثم قهقه طويلا وهو ينظر لمن حوله.

قال الشيخ عبد الجواد:
"لن تستطيع الذهاب إلى البدرشين فالطريق مقطوعة بسبب السيل."

تنهد فرج طويلا وهو ينظر إلى رمسيس، ما كان أسهل الحياة فى الزمن الماضى، عندما كانت القرية كلها تسميه فرج سنترال، فى ذلك الوقت لم يكن هناك سوى عدد قليل من التليفونات فى القرية، وعندما كان أحد هذه التليفونات يتعطل كان فرج سنترال هو بطل الموقف. فمنذ عمل

arabworldbooks.com

بسنترال البدرشين وأهل ميت رهينة يرونه مسئول التليفونات فى القرية يسرع إلى العمود الخشبى الذى يحمل الأسلاك، يتسلقه فى مهارة بالغة، يلف الأسلاك حول القطعة الخزفية ويهشرها ويصل ما انقطع منها، ويصلح ما فسد، كانت زوجته دائما تعيره:

"ماذا يصيبك من ذلك؟ ماذا يعود عليك من الجرى والقفز على الأعمدة؟"

ورغم أنه ترك الخدمة بالسنترال إلى المصنع الجديد ليصبح عاملا إلا أن لقب سنترال التصق به، ورغم أنه قارب الخمسين من عمره، فقد ظل وحتى شهور قليلة مضت يفعل نفس الشيء، يتسلق الأعمدة الخشبية بمهارة الشباب، ويعيد وصل الأسلاك المقطوعة فيعيد الحياة إلى تليفونات القرية، حتى حدث ما حدث، وجاءت الحكومة بتلك السنترالات الجديدة اللعينة. حُفِرَت شوارع القرية، ومُدت الأسلاك تحت الأرض، وتم إنزال الأعمدة الخشبية القديمة، واستبدلت بالعلب الأنيقة المغلقة. وقف فرج يتأملهم وهم يقومون بتوصيل هذه الخطوط الجديدة. عندما نظر داخل العلبة أصابه العجب، ما كل هذا التعقيد؟ وما هذه الأسلاك الدقيقة القصيرة؟ هل تكفى هذه؟ وعندما بدءوا يزيلون الأعمدة الخشبية أصيب بالقلق، ألا يتركونها عسى أن تنفع إذا فشل

arabworldbooks.com

ذلك السنترال الآلى الجديد؟ همس بذلك للمهندس الذى كان يشرف على توصيل الأسلاك بالسنترال الآلى، فقهقه المهندس قائلاً:
"لا تقلق يا فرج، لن يتعطل هذا السنترال بسهولة."

أخرج جرجس علبة سجائره البلمونت الصغيرة، قدم واحدة لفرج وهو يقول:
"خذ انفخ يا فرج، دعك من كل هذا الهم، أعرف أن البلدة كلها فى غم، ثلاث وفيات فى يوم واحد، وفى هذا الجو الغريب، لكن هذا ما يجب أن يجعلنا ننظر إلى الدنيا بشكل آخر، الحياة قصيرة ويجب أن نعيشها، الحي أبقى من الميت."

قال فرج وهو يخرج نفسا ثقيلا من الدخان:
"نعم، نعم."

نظر جرجس إلى رمسيس المستلقى قائلا:
"هذا لا يهتم بأى شيء، لا شيء يحركه."

قال فرج حزينا:
"لقد ترك ذلك كله وآن أن يستريح ويهدأ، ومنذ آن له ذلك وهو هكذا."

arabworldbooks.com

كانت عيناه تنظران إلى قدمي رمسيس المبتورتين، المتآكلتين فى الحقيقة، وعاد ليكمل: ومع ذلك فقد ناله الكثير، رغم كل شيء.

ظهره غريب، كأنما قد من صخر، كانت هذه هى الحقيقة، فقد كان قطعةَ من الصخر لم يكتمل نحته ولم يفصل بعد، ظل آلاف السنين فى هذه الرقدة حتى أصابته المياه الجوفية فتآكلت قدماه، ورفع من مكانه فظل الظهر غير مكتمل، خال من الحروف التى كتبت على ظهر أخيه الذى حملوه إلى الميدان البعيد، سرقوه فى ذات صباح باكر، كانت النساء يصرخن ويلطمن وهو يخرج من القرية فى جنازة هائلة.

وسكت قليلا ثم عاد يقول:

"أولا الكهرباء، ثم التليفون."

سأله جرجس:

"هل تعطل تليفونك أنت أيضا؟"

قال فرج:

"الغريب أن العطل فى تليفونات قليلة، وليس فى كل التليفونات كما كان يحدث قبلا."

arabworldbooks.com

"إنه السنترال الآلى يا فرج، لا تنقطع الخطوط بسهولة كما كان يحدث من قبل."

كان شابًا صغيرًا لا يزال، وقد فشل فى التعليم، وترك المدرسة بعد الابتدائية، عندما جاءوا يفتشون بيوت القرية، وبدأت الكارثة بهدم منزل أحدهم، قالوا أنهم وجدوا فى بيته حجارة من تلك التى اعتاد أن يراها فى الخلاء حول القرية، هناك عند الكوم، عند تمثالي رمسيس، ولم يكن المتحف قد بنى بعد، وكان تمثال رمسيس ذى الساق المبتورة يرقد تحت السماء محاطا بسياج حديدى، بينما كان أبو الهول يجلس أرضا وقد نشعت الرطوبة على جسده، معظم أهل القرية بنوا منازلهم القديمة من تلك الحجارة، أسرع يأخذ سكينًا من المطبخ، واتجه إلى غرفة المعيشة، سألته أمه ساخرة:
"من تبغي بهذا السكين؟"

قال متذمرًا:
"اسخرى كما تشائين، لقد بدءوا بهدم بيت عم تمساح، وقريبًا يأتون إلى هنا."

وضحكت:
"وماذا تأخذ الريح من الشراقى؟"
"خلف الصندوق الكبير هناك حجر منقوش."

arabworldbooks.com

"وماذا ستفعل؟ هل ستهدم الجدار؟"

لم يجب، أزاح الصندوق، وبدأ يعمل السكين في الجدار، يمحو حد السكين كل خط ليحفره مرة أخرى في ذاكرته، هذه الإوزة طالما ظن أنها إحدى إوزات بيتهم، أما تلك العين الخالية من الحدقة فلقد طالما تخيلها وقد عادت إليها الحياة تنظر إليه، تحدق به، عندما كان يستمع إلى حواديت جدته كان أحيانًا يظن أنها عين الغولة، يحاول ألا ينظر نحوها، هذا الحبل المجدول يشبه ضفيرة بائعة الفجل التي تجلس على رأس الحارة، والمرأة تجلس نفس الجلسة التي تجلسها بائعة الفجل، أبو فصاد يكاد يقفز من الحجر ويهز ذيله، كل حرف في هذا الحجر كان له معنى بالنسبة إليه، حكاية معه، اليوم لا يزال يذكرها كلها، وبإمكانه أن يخطها أيضًا، عندما كان ينظر إلى أبي الهول الواقف في حديقة المتحف وإلى كتل الحجارة الأخرى الملقاة حوله، كان يجد بعضها، وكان يظن أنها قد تحمل نفس المعنى، هكذا كان يفكر.

يومها بعد ساعات من العمل الشاق، ربت أبوه على كتفه وقال سعيدًا:

"لقد أنجبت رجلاً."

arabworldbooks.com

تنهد فرج:

"هذا السنترال الآلى اللعين، ماذا به؟"

وفجأة، وقف. واتجه فى حركة سريعة نحو بـاب الخـروج، ناداه جرجس:

"إلى أين يا فرج؟"

لم يجب، فقط أشار إليه مودعًا.

نزل الطريق نحو البلدة، واتجه مباشرة إلى كابينة السـنترال الآلى الكبيرة الموجودة على الشارع الرئيسى، وقف أمامهـا لحظات، ثم بعزم وتحدٍ، مد يده وفتحها.

أمامه كانت الأسلاك والوصلات الصـغيرة الأنيقـة تمـلأ الكابينة، مد يده وبدأ يجرب فيها.

* * *

عندما سُمع صوت الانفجار التفت البعض، وجرى الـبعض، البعض نحو الصوت، والبعض فى الاتجاه المضاد.

وقف فرج أمام الكابينة، لم تعد هناك كابينـة فـى الحقيقـة، سقطت بالكامل، لم يتوقع أبدا أن يفعل مجرد سلك صغير مثل ذلك، أخذ ينظر مشدوها، ولا يتحرك. جرى البعض نحوه:

arabworldbooks.com

"ماذا فعلت يا فرج؟"
"هل جننت؟"

واقفًا كان، ينظر نحو السنترال المنهار، وقد احترقت أسلاكه وانصهرت الألكترونات الدقيقة التى كانت تملأه، والتى لم يفهم أبدًا كيف تعمل، اقترب عوض قائلا:
"انظر إلى يديك يا رجل."

نظر إلى يديه وأحس بالألم، انتبه الآن فقط إلى الحروق التى ملأت يديه ووجهه، شده أحدهم من ثيابه:
"فلنذهب إلى مكتب الصحة."

قال آخر:
"فلنبلغ الشرطة."

قال ثالث:
"لابد أن الشرطة عرفت، كان صوت الانفجار مثيرًا."

تهالك فرج جالسا على الأرض، نظر إلى تمثال رمسيس وقد تآكلت ساقيه، طاف بخاطره: أوزة، عين خالية من الحدقة، بومة تقف ناظرة إلى وجهى، يد ممتدة بلا شئ، زهرة لوتس، امرأة تجلس القرفصاء، طائر طويل الرقبة كأبى قردان، حبل مجدول كضفائر بائعة الفجل على رأس الحارة، ريشة من

arabworldbooks.com

جناح البط، موجة نيل انفصلت عن المجرى، مفتـــاح حيـــاة أشبه بصليب صديقه، منجل لا يحصد شيئا، عينا نفرتـــارى الرائعتين، دائرة كرغيف، ثعبان، رأس نخلــة، حبــل غيــر مجدول، أبو فصاد، مثلث، وربابة، رمسيس مستلق متآكــل الساقين، أعمدة منهارة، وأبو الهول المرفوع مــن الرطوبــة يحرس القرية.

القاهرة ــ ١٩٩٦

arabworldbooks.com

بيـت العانس

ما الذى أقحم وجهك فى حلمى هذه الليلة؟

منذ زمن بعيد لا رأيتك ولاحلمت بك، فما الذى أتى بك إلـى حلمى هذه الليلة؟

قد تخرج أحيانا مبكرًا لتستمتع بالصـباح، والهـواء النقـى برائحة الندى، والترعة تستحم بها الجياد، الصبيان يتقافزون حولها، يغسلونها، ويلعبون فى المياه فى صباحات الصـيف الدافئة، أوراق الأشجار تحمل قطرات الندى لا تزال، تحملها برفق حتى لا تسقط، فإذا ما تغلبت عليها، تركتها تنزلق مـن بين أطرافها بعد أن تغسل صفحتها.

وعندما تقف عند الجسر ترقب الشروق، تظل عيناك تتبعـان الكرة الحمراء الهادئة، الهادرة، حتى تفاجئهما بعد حين ببريق لا تتحملانه، فتنكسران مبتعدتين عنها، وتنزل أنت فى طريق العودة لتنام طيلة النهار الحار.

أما الآن، فلا أستطيع أن أرقب الخيل ولا الشمس، فعلـىّ أن آتى بالخبز، وأن اتدثر جيدًا من برد البكور الشتوى.

arabworldbooks.com

وعندما تبدو الخيوط الذهبية الكليلة تشق طريقها بصعوبة بين السحب، سوف أكون فى طريقى إلى العمل.

والآن، ما الذى جاء بهذا الطائر الغريب الصغير يطير قرب الأرض يبحث عن بقايا تركها عمال النظافة هنا وهناك؟ طائر مشقوق الذيل يطير وعيناه فى الأرض حتى يكاد يصطدم بقدمى لولا أنه يحيد فجأة، هل رأت عيناه أخيرًا حركة قدمى؟ أو التقطت أذناه صوتهما فانتبه؟

وأنت أيتها الشجرة الرعناء التى اصطدمت بها عيناى فلم أستطع إنزالهما حتى جاوزتها ومضيت عنها، أنت أيتها الشجرة الرعناء، ما الذى جعلك تزهرين فى طوبة؟ أذرعك خلت من الأوراق وأطرافها امتلأت بالأزهار الحمراء الكبيرة الغريبة.

لماذا لم تصبرى حتى يأتيك الربيع كالأخريات؟

رفقاء صفٍ واحد، مدرسة واحدة، لكنك دائمًا اعتدت أن تثير المشاكل، مشاجرات دائمة، ورغم ذلك ترحيب دئم بك، لم أستطع أبدا أن أفهم كيف تقتحم؟

كنت أجلس هناك فى الركن البعيد، الصخب حولى، وأنا أقرأ وأنفرد بعالم آخر، لكن لحظة دخولك تشد الجميع، لحظة

arabworldbooks.com

دخولك تبدأ الهجوم: " ماذا بك اليوم، هل ضـــربتك زوجـــة أبيك؟"

ــ "بل قابلت وجهك الجميل!"

تشتد الضحكات، ولا تنسى أن تقــتحم عزلتـــى أيضًـــا: "ألا تزالين من يومها جالسة هناك؟"

وينتهزون الفرصة للنيل منى: "دعها فى حالها، إنها لا تهــتم بك."، "اتركها فهى مشغولة بهذا الكتاب الذى لن تنتهى منـــه قبل عامٍ آخر!!"

لا حل لى إلا أن أبدى الوقار، أبتســم ابتســامة المنســحب، وأغوص فى كتابى مرة أخرى، لكنى لا أقرأ، أرقــبكم مـــن بعيد، أحلم بعالم آخر.

كنا أيضًا نسكن فى بيت واحد، فى الليل أراك تتســلل مـــن فتحات السور الخلفى للحديقة، أضحك وأنا أرقبك.

ــ "لا تخبرى أمى أننى أتيت متأخرًا هكذا."

ــ "أنت ثمل!!"

ــ "ثمل؟ غير صحيح، فقط احس بدوار بسيط، شربت مــلء كوبٍ كبير دفعةً واحدة."

arabworldbooks.com

ـ "تمزح!"

ـ "أقسم لك، تراهنت على أن أفعل، وكسبت الرهان!"

ـ ....

ـ "اسمعى، لماذا لا تأتين لنتحدث قليلاً هنا فى الحديقة؟"

ـ "ماذا كنت تفعل فى بيت العانس؟"

ـ "آه، كانت تفرجنى على ألبوم صورها."

أما أنا فلم أستطع أبدًا أن أقتحم.

وفى الفصول، تدور المناقشة، ويسود المدرسة الهدوء، ومن مكانى فى الفصل، تتعلق عيناى بشجرةٍ وحيدة، أذرعها خلت من الأوراق، ولكنها امتلأت بزهورٍ حمراء كبيرة، ولا نزال فى طوبة.

ـ "ماذا كنت تفعل فى بيت العانس؟"

ـ "آه... كانت تفرجنى على ألبوم صورها!!"

وقلت ساخرة: "ألبوم صورها فعلاً، وكيف وجدته؟"

ضحك: "كلكن سواء!"

وغضبت: "بالقطع لا، لا يمكنك أن تقول أننى وهى سواء."

arabworldbooks.com

ابتّسم بغموض، وازداد غضبى: "من تظن نفسك؟ لقد اجتاحك الغرور."

قال برقة: "أنا أستحق ذلك!"

ـ "وكلكم سواء!"

ـ "الرجال؟ نعم، طبعًا."

ـ "مغرورون، وأغبياء!"

ـ "مغرورون جائز، أما الثانية فلا!"

ـ "أغبياء، النساء يلعبن بكم!"

ـ "ولكن هذا بإرادتنا دائما، صدقينى!"

ـ "النساء يحكمنكم!"

ـ "ونحن نحكم العالم!"

ـ "حكم الدمار والهلاك!"

ـ "ولكننا نحكم العالم!"

ـ "من الظاهر فقط، الظاهر فقط أن الرجل يحكم."

ـ "اسمعى، الرجل يحكم ويسود، أنت، ما اسمك؟"

بدأ يتغير، وقلت: "ماذا تقصد؟"

arabworldbooks.com

ـ "لمن تدعين؟ أليس لاسم أبيك؟"

ـ "آه، هذه مسميات، الامتداد الحقيقى هو للأم!"

ـ "غير صحيح، ندعى بأسماء أمهاتنا يوم القيامة فقط."

ـ "هذا هو الدليل، الامتداد الحقيقى هو امتداد البطن من البطن."

مرت لحظة صمت، هدأ مرة أخرى، ثم أجاب: "هذا امتداد عضوى فقط، وليس ماديًا!"

ـ "ما العضوى وما المادى؟ لقد أجبت نفسك."

ثم تذكرت: "ماذا كنت تفعل فى بيت العانس؟"
لم أستطع أبدًا أن اقتحم.

كنت آتى هنا لأشترى أشياء صغيرة، ومنذ زمن لا أتيت ولا اشتريت الأشياء الصغيرة، لكنى لم أهتم لذلك أبدًا،لم أهتم لذلك أبدًا.

ما رأيتك ترحل، وما أردت أن أراك ترحل، والآن أسأل، أسألك، وأنا أقاوم الإحساس بالندم، لماذا رحلت حينئذ؟ ولماذا عدت مرة أخرى؟

arabworldbooks.com

ماذا أقول سوى أن أحتضن الشئ الوحيد الـــذى مـــا يـــزال يخصنى، وأسألك: ما الذى أتى بك إلى حلمى هذه الليلة؟

أنظر نحو الشجرة.

فى المنزل الصغير القديم، شجرة مانجو كبيرة كانت تظلـــل الحديقة، وبضع أشجار أخرى صغيرة، وعندما تتســـلل فـــى المساء من سور الحديقة الخلفى، دائما أراك، تدخل بيتك من النافذة الخلفية التى تؤدى إلى غرفة نومك مع أخيك، وأنا فى نافذتى، دائمًا أراك، لكنك كنت تبدو وكأنك لا ترانى.
كنت تتسلل إلى بيت العانس، أما اليوم، لا أحد يتســـلل إلـــى بيتى، لا أحد.

الهرم ــ ١٩٩٤

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

عــــودة

عندما دخل الدار وجد النساء جالسات القرفصاء ظهــورهن مستندة على الجدران تدور بينهن تلك الهمهمة الغامضة التـــى طالما كرهها، وقد لففن رءوسهن بالطرح السوداء وجلابيبهن السوداء تلمع فى الضوء الكابى فى غبشـــة الردهـــة. علـــى الجانبين جلسن، كل منهن وضعت يديها فى وضـــع غريـــب بشع، إما على ركبتيها، وإما أســـندت بهمـــا، أو بإحـــداهما رأسها، وكأنما تخشى وقوعه قبل خروج روح الرجل. أمه لم تكن ظاهرة بالمشهد. وعندما دخل، وقع الضـــوء النهـــارى الآتى من خلف ظهره فى المدخل مظهرًا ظله طـــويلا بـــين الجالسات اللاتى لفهن السواد. التفتت أنظارهن نحوه دون أن يتحركن، وتحركت شفاههن لتخرج تصعيبات لا معنى لهـــا لدى رؤيته.

عرف للحظته أنه جاء فى الوقت المناسب، وأنه لم يمت بعد. دخل إلى الغرفة، وجد أمه جالسة عند رأسه تمســـح عليـــه، وتتمتم بآيات القرآن التى تحفظها، سورة يس، تقرؤها بصوت غير مسموع، وإنما تخرج معه من حنجرتها زنة رتيبـــة لا تتوقف، على نفس النغمة الرتيبة. وقف لحظات، بلا صـــوت

arabworldbooks.com

يراقب ما يحدث، كان الرجل العجوز لا يكـاد يبـين بـين الأغطية التى تعلوه وتحيطه. اقترب بخفة، نظر إلى عينيـه، كانتا مغلقتين، لكن رَمْشَةً خفيفة طمأنته على ما جاء له.

قال فى حدة باسمة:

"ماذا تفعلين بالرجل؟"

انتبهت المرأة، لم تتحرك حتى انتهت من الآية التـى كانـت تتمتم بها، التفتت إليه:

"أخيرًا جئت؟ ألا تسأل أبدًا على أمك؟ ما تمرش فيك العـيش والملح."

قال بهدوء ونظرة لائمة:

"هل هذا وقته؟"

قالت متحسرة:

"لحسن الحظ أنه لم يمت بعد، لك حظ تراه.."

قاطعها:

"لم يمت بعد؟ ولن يموت، ليس الآن. هيا اذهبى إلى النسـوة الجالسات بالخارج واطرديهن، لا داعى لوجودهن فلن يموت الآن."

arabworldbooks.com

قالت بغضبها الواهن الخائب:
"ماذا تقول؟ هل أطرد ضيوفنا؟"

قال رافعا صوته:
"كل امرأة بالخارج تنتظر موته لن تفلح، وسيكون نأبهن على شونة؟ اذهبى اطرديهن وإلا طردتهن بنفسى، اخرجى أريـد والدى على انفراد.."

خبطت على صدرها:
"هل جننت؟"

شدها من ذراعها فقامت من مكانها، واتجهت إلى الباب وهى تتمتم وتتصعب، بينما فتح والده عينيه بصعوبة وقال بصوت لا يكاد يبين:
"أخيرا جئت؟ ما الذى أخّرك؟"

اقترب منه بينما خرجت أمه تشكو همها إلى الله وقد رفعـت صوتها بمجرد خروجها من الغرفة، وارتفعت الهمهمة بـين النسوة خارج الغرفة، انحنى على رأسه وقال بهمس:
"سامع؟ النسوة اجتمعن يردن موتك، وها هن يؤدين طقوسهن لعزرائيل كى يحضر، هل سـتتركهن ينتصـرن وينجـزن مسعاهن الأثيم؟ هل تتركهن يقتلنك؟ اعرف أنه لا صالح لى

arabworldbooks.com

بك، إن كنت تريد الموت فسأرحل فى الحال، فماذا أفعل بأب ميت؟ أما إن كنت ترغب فى الحياة.. فسأبقى، هيا، تحرك.. وجاوبنى.."

ابتسم الأب ابتسامة واهنة، وأشار له بوجهه أن يقترب أكثر، وأخيرًا قال بصوت لا يكاد يسمع:
"يا ابن الكلب!"

ضحك الفتى، وقال:
"أترى؟ ها أنت ترغب فى الحياة، فلماذا تموت إذن؟ ثم أنت فى خير حال كما أرى.."

قال الأب:
"إننى متعب جدا، يبدو أننى أموت فعلاً!!"

قال ساخرًا:
"قل هذا لمن لا يعرفك، ودعك من هذه التمثيلية السخيفة، أنت متعب فقط لأنك لم تستحم منذ مدة، منذ متى لم تضع المرأة الماء على جسدك ولم تدهنه لك بالطيب؟ ولم تدلك بدنك بيديها؟ هل أقنعتك بأنك عجوز خرف لا تصلح؟"

ضحك الأب فجاءت ضحكته واهنة يقطعها سعال ضعيف غير قادر على الخروج:

arabworldbooks.com

"قلت إنك ابن كلب!"

ضحك الفتى:

"فلأكن، ابن كلب أنا، ومن الذى أنا ابنه؟ وها أنت تضحك وكأنك تموت أيضا، انتظر حتى أخلص من هاته النسوة الجالسات بانتظار خبرك، لابد من أن يأخذن الطريحة منى وإلا فلن يذهبن!"

وقف بباب الغرفة، كن لا يزلن فى نفس مجلسهن وقد ارتفع بينهن اللغط، لكن لم تتحرك واحدة من مكانها، قال بصوت مرتفع:

"ياللا يامرة انتى وهية، مستنيين إيه؟ عايزين تقتلوا الراجل وهو لوحده؟ طب انا جيت ياروح امك انتى وهية، تلاتة بالله العظيم اللى ما هاتقوم بالذوق..."

وقفت بعض النساء، ونظرت بعضهن دون أن يتحركن من مكانهن، قال بغيظ: "ما قلتلكوا تتوكلوا، إيه؟ ما فيش واحدة وراها راجل ولا عيال؟ مالكوش شغلانة جايين تتسلوا ع الراجل عشان الست صاحبتكوا دى تبقى تجاملكم فى المناسبات وتيجى تساعدكم على قتل اجوازكو انتو كمان؟"

arabworldbooks.com

قالت إحداهن:

"أما إنك صحيح ناقص رباية.. بقى ده جزاتنا؟ خيرٍ تعمل شرٍ تلقى."

وأكملت أمه غاضبة:

"ولد سوّ، جبت لنا الكلام."

قال ساخرًا:

"وماله، إنتوا مستنيين أقول لكم إنى متربى؟ لأ، أنا بقى مش متربى، وأعلى ما ف خيلكم اركبوه، قومى هاتى لى الطشت، والنسوان دى كلها تروح."

تحركت أحداهن بغضب مبدية امتعاضها، وهى تتمتم بكلمات غير واضحة المعالم، نادى عليها ساخرا:

"بتقولى إيه يا ولية يا مجنونة، ما تخليكى جريئة وتتكلمى بوضوح، طبعا ما تقدريش، وكل واحدة منكن ما تقدرش تكون صريحة وتعترف إنها جاءت تبكى على نفسها، وتجلب النكد على الدار دى، روحوا عيطوا فى دياركم، هنا ما حدش ها يعيط وما حدش هايموت."

بدأت النساء بالفعل يتحركن خارجات من الدار وكل منهن تقول ما تقدر عليه فى غضبها، وانفجرت أمه باكية:

arabworldbooks.com

"يا ويلى ويا سواد ليلى!"

صاح بها:

"قومى هاتى الطشت، وخلى الصريخ ده بعدين لما تفضى."

والتفت داخلا الحجرة ثم عاد يلتفت إليها:

"وسخنى ميه، ها احميه!"

* * *

قال الراوى:

"وبالفعل، حممته فى ماء دافئ، ودلكت له جسده، وملأت غرفته بالبخار المتصاعد من الماء، ثم أخرجته من الطشت ولففته ببطانية ووضعته فى فراشه. نام، وعرق، وفى المساء كان يصيح طالبًا طعامًا.

ذهلت أمى، كانت تقسم أنه ظل يرفض الطعام أيامًا عديدة، حتى داخلتها القناعة بأنه بسبيله إلى الموت."

القاهرة ـ ١٩٩٦

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

وجــه الزمـــن

فى كل صباح أقطع نفس الطريق، فى البرد اللافح، فى دفء صباح الصيف الباكر، وأحيانا تحت المطر.

أركب الحافلة المزدحمة، وقد انتهى هدوء البكـور، وتلـوث الصباح بالضجيج، والأنفاس الغريبة تندس وتصفع وجهـى وشعرى وكل ما يبدو من جسدى، والأقدام تدوس على قدمى فأنتزعها بلا كلمة، حتى عندما أسمع: "آسف"، أبتسم بتعب:" لا عليك "، أشق طريقى إلى باب الحافلـة، أنتـزع جسـدى بصعوبة من بين الأجساد المزدحمة.

فى الطريق مرة أخرى، أحس الفـراغ مـن حـولى، لكـن خطواتى تتابع بفتور، وصدرى يحس بالاتساع، إنمـا هـى لحظات قليلة حتى تزدحم الخطوات حولى مرة أخرى.

مبنى المدرسة القديم يلوح لى، الأشجار الكالحة المتسـاقطة الأوراق تحيط به، صوت الخطوات تزدحم حـولى، أسـمع "صباح الخير" من عدة اتجاهات، أصوات مختلفة، المعلمون والمعلمات، الطلبة والطالبات، مدير شئون العاملين بجهامتـه المعروفة، أقدم له أول كل شهر ست علب من السجائر، ومع

arabworldbooks.com

ذلك يتجهم، ويضع خطًا أحمر مكان اسمى إذا تأخرت لدقائق قليلة.

الحكيمة بقامتها الممتدة المليئة، وصوتها المبحوح، وهى تضاحك إحدى المعلمات: "يبدو أنك ستلدين اليوم، فبطنك قد انخفضت، هذا غير عادل، المدرسة تشكو من كثرة المعلمات اللاتى أخذن أجازة وضع هذا العام، سأطلب من مدير المدرسة أن يضع لكُنّ جدولاً زمنيًا لمواعيد الحمل بعد ذلك حتى لا تتداخل الأجازات!!"

أما أنا... فيبدو أننى لا أثير الرغبة فى المزاح أو الشجار، الصباح الودود بلا تعليقات كثيرة، أنسحب إلى طابور المدرسة، فى مكانى المعتاد.

تحية العلم ككل يوم، والحديث يشتد حول جدول الحصص، جاء الأستاذ يحيى مسرع الخطى، دخل إلى أرض الطابور، أسرع أحد المعلمين إليه: "قلت لك ياأستاذ يحيى أن تهتم بوضع الحصص الأخيرة فى جدولى، أنا لا أحب أن أصل البيت قبل زوجتى."

وانتبه بعض المعلمين والمعلمات لوصوله، فاجتمعوا حوله، كلهم يصيح بمطالبه التى لم تتحقق، نظر مدير المدرسة إلى

arabworldbooks.com

الجميع مستاءً، وتبادل مع عبد الله نظرةً فأسرع إليه صائحًا: "أستاذ يحيى، جئت متأخرًا اليوم كعادتك!"

"سامحنى يا أستاذ عبد الله، أقول لك، إذا كـــان يرضـــيك أن تضع خطًا أحمر مكان اسمى اليـــوم فـــى دفتـــر الحضـــور والانصراف، فافعل، أنا لن أجادلك اليوم."

وقف المعلمون حتى تمت تحية العلم، ثم عادوا يتحلقون حول يحيى الذى أسرع قائلاً: "أرجوكم، الجدول لـــم ينتـــه بعـــد، الجدول الذى معكم مؤقت ليومين أو ثلاثة فقط، سأقوم بكـــل التعديلات التى تطلبونها، سأريحكم جميعًا."

همست المعلمة التى تجاورنى: "دائمًا يضع لـــى الحصـــص الأخيرة، بينما يجب أن أتواجد فى منزلى مبكرًا قبل عـــودة أطفالى من مدارسهم..."

ثم تحرضنى: "لماذا لا نقدم شكوى لمدير المدرسة؟"

أنظر إليها، يثيرنى ذوقها فى اختيار ملابسها، تلك الملابـــس دائمًا توحى بالثراء رغم ما فيها من ذوق رديء، ولا عجب، فزوجها كما نعلم من ضباط الجيش، دخل أكبر وفراغ دائـــم لدى المرأة.

arabworldbooks.com

وأرد عليها بهدوء: "أنا لا أشكو من جدولى، فالأستاذ يحيى يفعل دائمًا ما يستطيع."

دائما يرضينى جدولى، لا أشكو أبدًا، كل حال لها عندى ما أجده مريحًا، الحصص فى أول اليوم تساعدنى على العودة مبكرًا، والحصص فى آخر اليوم تعطينى بعض الوقت فى بيتى صباحًا، والحصص فى وسط النهار لا بأس بها، أنام ما يكفى ولا أتأخر فى العودة كثيرًا، وحصص الفراغ الوسطى سأفيد منها فى اعداد الدروس ولو أنى لاأفعل أبدًا، أى حال فيما يبدو لا يضايقنى.

يتجه الطلاب إلى الفصول، وأسير إلى فصلى، يعود الهدوء للمدرسة، وتنتظم الدروس، ويبدو الكون فى لحظة أخرى مختلفة. أفتح دفترى، وأكتب عنوان الدرس على السبورة، وتبدأ المناقشة والمداولة والأخذ والرد، هذه حكاية أخرى.

شقت الصمت صرخة غريبة، ودق الجرس بلا موعد، كان ذلك يومًا مختلفًا رغم كل شئ، اختفى الصمت مرة أخرى، ومرة أخرى تلوث الجو بالضجيج، الهمسات حينًا، والأصوات المترددة حينًا آخر، والخطوات تسرع على الدرج، أنا لم أكن هناك ولم أرَ شيئًا.

arabworldbooks.com

قالت الحكيمة: "كيف لى أن أعرف؟ جاءوا به يصرخ من الألم، استدعينا سيارة الإسعاف وذهبوا به إلى المستشفى، وعندما عادوا كانوا يحملونه، ومعهم الدواء، ولا يزال يشكو من نفس الألم، لم يفعل الطبيب شيئًا سوى أن كتب له حقنة مهدئة، وقال: "هو يشكو من الإجهاد الزائد"، وضعت الدواء فى الحقنة، وأدخلت الإبرة فى ذراعه، كان شيئًا صعبًا، فقد كان الوريد هاربًا، وأخيرًا استطعت أن أدخل الإبرة، ودفعت الدواء ببطء، وما أن وصل الدواء كاملاً حتى انتفض فجأةً، ثم سكن تمامًا، أى شيئ فعل الدواء به، لا أدرى."

أعرف الوريد الهارب، أعرفه تمامًا.

قال الأستاذ عبد الله: " هى أعمار، وهذا ما كتبه الله له، هل نعترض على مشيئة الله؟"

قالت: "كيف لم يعلم الطبيب؟ كيف كتب لكم على هذه الحقنة؟ ثم، هل هى السبب فى الوفاة؟ أنا لا أقطع..."

"يا سيدتى، لا أنت ولا الطبيب، ولا أي مخلوق على وجه هذه الأرض كان بمقدرته أن يغير ما حدث، هذا عمره...."

قالت: " كلنا كنا نعرف ما به، ولكن الذى حدث هو أننا كلنا ساعدناه على الموت."

arabworldbooks.com

كانت تهتز، والرعشة بادية على يديها المتوقفتين فى الفراغ، وكأنهما لا تجدان شيئًا تستندان اليه، وضع يده على كتفها بحركة تلقائية، فنظرت إليه شذرًا، أسرع يبعدها مرتبكًا: "كيف تقولين ذلك؟ هل فقدت إيمانك؟ استغفرى الله يا سيدة نعيمة."

باب غرفة الحكيمة مغلق، المعلمون والمعلمات واقفون حول المكان، انصرف معظم الطلبة، وبقى بعضهم، دهشة تعترى الجميع، منذ لحظات قليلة كان يمتلئ بالحيوية، فماذا حدث؟

كان عدد من المعلمين يقف فى غرفة المدير، كانت الحكيمة واقفة، عيناها زائغتان، وجسدها يرتعش، وكانت تردد: "ما أن وضعت الحقنة فى ذراعه حتى انتفض للحظة، ثم سكن للنهاية، أنا غير مسئولة، هذه كانت وصفة الطبيب الذى أخذوه إليه!"

وهز المدير رأسه: "طبعًا، طبعًا، لم يقل أحد أنك مسئولة يا أبلة نعيمة."

أخذت تردد ثانية: "هم الذين أحضروا الحقنة التى كتبها الطبيب له، أنا فقط أعطيتها له كما أمر الطبيب."

همهم بعضهم: "ولكن أهله... قد لا يعرفون ذلك"

arabworldbooks.com

قال آخر: "ماذا تعنى قد لا يعرفون، المسألة ليس فيها مغالطات!"

"مؤكد، لا توجد مغالطات، الكل برئ!"

نظر المدير شذرًا: "ماذا تقولون؟ كيف تقولون هذا؟ هذا عمره يا رجال! لا تكفروا!"

رفعت الحكيمة يدها تحكم الطرحة حول رأسها، وعادت تردد بثبات أكبر: "أنا غير مسئولة."

قال آخر: "الطبيب قد يكون مسئولاً، لابد أن نعرف."

"أى شئ نعرف؟ زميلنا العزيز مات، ولا شيئ هناك يجب معرفته سوى ما يأمرنا به الدين والعرف!"

قال أحدهم متسائلاً بغباء: "ماذا تعنى سيادتك؟"

"أعنى ما نعرفه جميعًا من أن إكرام الميت دفنه، كلنا كبار ونعرف ما يجب عمله، سأدفع التكاليف من جيبى الخاص، هذا واجبى."

قال الأستاذ عبد الله: "كلنا سندفع، هذا واجبنا تجاه زميلنا، فقط يجب أن يأتى الطبيب ليكتب شهادة الوفاة، ثم علينا أن

arabworldbooks.com

نحدد من سيقوم بإحضار الكفن والمغسلين، ومن سيقوم بإبلاغ أهله، لن نتركهم يفعلون شيئًا، يكفى ما هم فيه من حزن، سنخرجه فى جنازة لائقة من هنا، من المدرسة."

قال المدير مرة أخرى: "طبعًا، طبعًا، كل هذا مفهوم، المهم الآن أن يأتى الطبيب ويكتب شهادة الوفاة، إكرام الميت دفنه، طبعًا، أنتم تعلمون!"

هزوا رؤوسهم جميعًا، وهمهم بعضهم موافقًا، خرجت من الغرفة، أسأل وجوههم وعيونهم التى لا تنبئ بشئ.

"لقد فاجأته الأزمة وهو فى الحصة."

"أزمة؟ أية أزمة؟"

وقفت فى الردهة، اليوم غريب، أرقب الوجوه الأخرى ولا أرى وجهى.

هز الطبيب رأسه بعد أن فتح عينيه ونظر فيهما متفحصًا، ثم كتب شهادة الوفاة.

ورأيت وجه الحكيمة عندما تناولت الورقة، وتأملتها ثم ناولتها مدير المدرسة.

arabworldbooks.com

ورأيت وجوه ثلاثة من المعلمين يتجهون إلى الخارج لشراء الكفن.

ورأيت وجوه المغسلين الذين جاءوا لغسله وتكفينه.

رأيت وجه امرأته التى جاءت على عجـــل، تهـــرول، تكـــاد تسقط.

ورأيت وجه أمه ... يداها تتصادمان فوق رأسها، وعيناهـــا زائغتان وصراخها يشق الجمع.

ورأيت وجه أخيه الذى جاء منحنىَ الكتفين.

ورأيت وجه الزمن الذى تلكأ كثيرًا هنا.

ورأيت وجه المعلمة التى على وشك الوضع وبطنها ينشـــق ليمنح الحياة.

وانت يامن أرشوك بست علب من السجائر تأخذها متجهمًـــا، لماذا تضع خطًا أحمر مكان اسمى يوم أتأخر قليلاً؟

علق ورقة كبيرة مكتوبًا عليها "الصلاة على الفقيد فى المسجد المواجه لمنزله، والجنازة فى الساعة الثالثة تخرج من هناك"، وتحت ذلك دوّن العنوان.

arabworldbooks.com

نظرت إليه فهز كتفيه: " أمه أصرت على أن يخرج من بيته!"

ونظر حوله، إلى بعض الطلبة الباقين لا يزالون: "هيا يا أولاد، انقلوا العنوان، واذهبوا فورًا، وآتوا بكل من تستطيعون، نريد جنازة مشرفة!"

طاف بعقلي خاطر ساخر ليس له معنى: يحيى لا يحيا.

الهرم ــ ١٩٩٤

arabworldbooks.com

ربـابـة .. "آبـا علـى"

ماذا يخفى كل عجوز فى جعبته من سحر يجعلنا نصغى؟ هل هو تلك الوصفة الساحرة المسماة بالخبرة؟ هل وصل هؤلاء العواجيز الساحرين إلى مستوى المعرفة الكاملة؟ لا يمكن أن يكون هذا هو الأمر، فلا يصل أحد أبـدًا إلـى هـذا الحـد المخيف، لكنه مايحملون مـن تـاريخ وأقاصـيص قديمـة، التاريخ، هذا هو السحر الخاص والخالص. أنت تحس كأنـك لا تحمل شيئًا من الذكريات أمام ما يحمله ذلك العم، فبإمكانه أن يحدثك عن تاريخه وتاريخ أبيه وجده حكاية من عاش كل هذه الأحداث بكل ما فيها من أسرار موحية، ومفاتيح لخيالات مستحيلة.

كان عجوزان يقضيان الوقت فى المسـامرة، وبعـد صـلاة العشاء فى زاوية المسجد الذى يتألف من ساتر من البـوص المغزول بخيوط من الكتان، وفرش مكون من بضع قطع من فرو الأغنام والأبقار، يجلسان وتمتد بينهما المساجلات، فـى مباراة بديعة ذات جاذبية خاصـة، تجعـل بعـض الرجـال والفتيان يلزمون مجلسهم لا يبارحونه، رغبة فى سماع مـا يصل إليه حديثهم فى هذه الليلة أو تلك. وقد يبقى الصغار فى

arabworldbooks.com

المجلس فتتحول الحكايا إلى نوع خاص من الرواية كأن يقول صبى لأحد العجوزين:

"احك لى ياجدى حكاية الجسر."

ويقول العجوز:

"أشعلوا لنا النار أولاً."

ويسرع بعض الفتيان لإحضار بعض القوالح الجافة، يتعاون البعض لإشعالها بينما يعد البعض الجوزة، ويخرج أحد الرجال قطعة من الحشيش من جيبه قائلاً:

"والله حظكم فى أرجلكم، لقد حصلت على هذه القطعة اليوم بالمصادفة، قلت أنها ستصلح لمثل هذه المناسبة."

فى الحقيقة هذه المناسبة هى مناسبة يومية تقريبًا، لكن الاحتفاء بها يجعلهم يعاملونها كالمناسبات السنوية تمامًا.

وفى أيام كثيرة، كان البستانى يأتى إلى الزاوية، يجلس إلى العجوزين مثل الآخرين من أهل البلدة، شبابا وناضجين، وعواجيز أيضًا، وأحيانًا كان يصاحبه ابنه البنا.

كان البنا نحيفًا كأبيه، خفيف شعر الرأس كأبيه، أسود العينين جاحظهما، كأبيه، وإن كان جحوظ عينيه أقل مما لأبيه، وكان البنا يحب الحياة كأبيه.

arabworldbooks.com

ولم يكن البستانى يحس بمتعة فى الحياة كما فى مثل هذه الأمسيات، بين العواجيز، فكان ينطلق فى المساء إلى الزاوية ليجالسهم ويستمتع بثرثرتهم.

وعندما تشتعل القوالح بالوهج الأحمر، وتبدأ الجوزة بالدوران بين الرجال، ويأخذ العجوز النفس الأول ويكتمه ثم يطلقه مطلقًا خلفه سلسلة من السعال الجاف، يحكى العجوز حكاية الجسر:

"كنت فى الزمن الأول صيادًا، ولم يكن يشق لى غبار. فى الصيد لا صياد يبارينى. أقف عند الجسر على رأس الترعة أرقب المياه، وأصطاد بيدى العاريتين، وبالسنارة والشبكة. وعندما أضع الجوبية فى الماء فلابد أن آتى فى الصباح لأجدها مليئة بالطيبات. آخذها إلى أمى فتشويها أو تقليها ونأكل نحن وبيوت الجوار يومها، كل بيوت الناحية تأكل معنا."

كان يحلو للعجوز الآخر أن يعارضه دائمًا، وكان هذا أحلى ما فى الأمر، فإذا سكت ولم يعارض، كان البستانى يلقى بكلمة تثير المناقشة:

"هل عاصرت ذلك يا با على؟"

ولم يكن آبا على يجد فرصة أفضل من هذه:

arabworldbooks.com

"عندما كان أبوك محمد يطعم أهل الناحية سمكًا؟"

يبتسم البستانى بخبث:

"وهل كان يفعل؟"

"كيف تجرؤ على تكذيب هذه الشيبة؟ لولا أنها عيرة، ككل حكاياته!!"

كان آبا محمد يختنق بالانفعال:

"أنت تعلم جيدًا أننى كنت أفعل هذا، وكانت أمك تقول لك ألا ترى ما يفعل أخوك محمد، لماذا لا تفعل مثله؟"

ويضحك آبا على:

"نعم، كانت تريدنى أن أطعم أهل الناحية أيضًا، ولكن ماذا يفعل الآخرون عندما أقوم أنا وأنت بإطعام الجميع؟"

يقول آبا محمد:

"طيب، ألا تذكر يوم اصطدت القرموط؟"

ويقبل الجميع صائحين:

"احك لنا يوم اصطدت القرموط يابا محمد."

يتطلع آبا محمد بانتصار أمام رغبات المستمعين، وتدور عيناه فى حيوية بين الجميع، وهو يردد حكاية صيد القرموط:

arabworldbooks.com

"كنت واقفًا عند الجسر، وكانت معى سنارة كبيـــرة عنـــدما شاهدت ذلك القرموط، كان طوله يصل إلى مكان بعيد، لقـــد مر أمامى وظل يمر وأنا مذهول فلم أر ذيله منذ رأيت رأسه إلا عند الظهر."

"يا مهول."

"أكان بهذا الطول؟"

"هل رأى أحدكم مثل هذا؟"

يرد آبا على مؤكدًا:

"ولن يروا مثله أبدًا."

"وبعدين يابا محمد؟"

يكمل آبا محمد:
"عقدت العزم على صيد هذا القرموط، وكنت أنتظر كل يـــوم من الصباح إلى المساء عند الجسر حتى أراه مـــرة أخـــرى، وضعت خطة كاملة لصيده، أخذت أربى الدود وأضع له من الأسمدة والغذاء حتى يكبر ويكبر، ولم أتوقَف عن الانتظار، فأين سيذهب هذا القرموط؟ الترعة من هنا لهناك، ولابد لـــه أن يعود يومًا."

arabworldbooks.com

"مرت ستة أشهر أو نحو ذلك، وأنا أتقلب على جمر انتظاره، وأخيرًا رأيته آتيًا من بعيد، أسرعت أعلق الطُعم فى الشصّ، ورميت السنارة، وانتظرت هادئًا، عند ما اقترب أعجبه الطعم فأقبل عليه. كنت كما قلت لكم، قد وضعت له طعمًا من الدود الكبير الذى ظللت أربيه حتى أصبح فى مثل حجم الثعبان الدفان الكبير. المهم، غمزت السنارة فرفعتها، لكن القرموط كان قويًا وثقيلاً فشدنى، ظللت أشده ويشدنى، من طلوع الشمس حتى الظهيرة، أنظر لعل أحدًا يظهر فيساعدنى، عند الظهر رأيت الولد عبود الأسود الذى مثل البغل آتيًا فناديته، جاء يشد معى حتى استطعنا إخراجه، هل تعرفون كم بلغ طول هذا القرموط؟"

ينظر الجميع باهتمام، ويقول آبا على فى سخريته الماكرة:
"بالمتر أم بالذراع؟"

يقول آبا محمد منفعلاً:
"كان طوله ونحن نجره بحيث أنه عندما وصلنا إلى بيتنا، كان ذيل القرموط لا يزال عند الترعة."

يقول آبا على:
"وماذا فى ذلك؟ لقد شاهدت فى حياتى ما هو أعجب من هذا، لقد كنت فى مصر فى عام ٤٥ أو ٤٦ لا أذكر، ومررت

arabworldbooks.com

بالنحاسين فرأيتهم يصنعون آنية طعام نحاسية ضخمة جـدًا، وقد أخذت منهم وقتًا طويلاً لا أستطيع أن أعرف مداه، لكننى أستطيع أن أقول أننى مررت عليهم بعدها بـثلاث سـنوات، فوجدتهم لا يزالون يعملون فى نفس الآنية."

يضحك البستانى ضحكته العالية الصـافية، يضـحك حتـى القهقهة، بينما تصيب الدهشة بعضهم، ويسكت البعض الآخر متمعنًا فى الجوزة، يعد الأدوار حتى تصل إليه. حتى البنـا كان يجلس فى صمت يرقب ضحكة أبيه المجلجلـة بعيـون براقة ثاقبة، أما آبا محمد فهو دائمًا مصحصح لما يقوله آبـا على.

يقول آبا محمد متعجبًا:
"ما هذا؟ هل تسخر منا؟ ثلاث سنوات يعملـون فـى حلـة واحدة؟"

يرد آبا على عليه ساخرًا:
"وفى أى شئ يمكن طبخ قرموطك هذا إذن؟"

يقول آبا محمد وقد بدأ يغضب:
"أنا لا أكذب، ولعلمك أنت المشهور بالكذب بين الجميع، وهم يعرفون ذلك، بل يعرفون سيرتك كاملة، ويعرفون كم كنـت

arabworldbooks.com

بلطجيًا وكذابًا فى شبابك، يعرفون سيرتك وسيرة عائلتكم كلها."

يقول آبا على:
"وما لها سيرة عائلتنا يا سى محمد؟ نحمد الله على الذكريات العطرة التى تسير بين الناس عنا."

قرر آبا محمد أن يوقع بآبا على، وأن يفضح بعض سيرة عائلته، يقول آبا محمد وهو ينظر من طرف عينه:
"عطرة جدا، كسيرة جدتك مقطفة مع زوجها الميمون."

يلتفت البستانى وهو لا يكاد يتوقف عن الضحك:
"من تلك التى أكلت ذراع زوجها يابا على؟"

لم يكن آبا على يحكى كثيرًا عن جدته هذه، كان فى أغلب الأحوال يقابل هذا السؤال من البستانى بنظرة غامضة وابتسامة أكثر غموضًا ولا يجيب، لم يكن الأمر خجلاً من سيرة هذه الجدة، بل على الأغلب إحساس بالحزن والشجن، كان قد رآها صغيرًا، وأحبها أكثر مما أحب أمه نفسها، كانت على الأغلب امرأة ريفية شديدة الاعتداد والقوة، ذات شخصية نادرة، هكذا سمع عنها البستانى، ولكن آبا على لم يكن يحكى عنها كثيرًا.

arabworldbooks.com

حدث ذلك فى مرات قليلة جدًا، مثلما كان فى تلك الليلة، وكان يحس يومها بشجن، كانت نظرته تحمل ذلك الشجن والحزن، كما يحدث مع مثل هؤلاء العجائز حين يتحدثون عن الذكريات الغالية. يومها كان يتحدث بصوت عميق كأنه آت من الزمن البعيد.

ضحك آبا على ضحكة رقيقة وربما مفتعلة، ليخفى بعض الشجن الذى قد يطغى على صوته، وقال بصوت يحمل رنة عتاب:

"تلك كانت جدتى، كان ذلك فى زمن حفر البحر الكبير الذى يمر بالبلدة الكبيرة المجاورة، وكان الهجانة ينزلون إلى البلدة للبحث عن الفلاحين الهاربين الذين يعملون فى المشروع، وكانوا إذا دخلوا إلى البلدة أسرع كل إلى داره، وخلت الشوارع، وصار الناس فى جهد وخشية، وفى ذلك اليوم دخلت جدتى مقطفة إلى السوق، وكانت تبيع ثمار المشمش التى تأتى بها من شجرتها التى زرعتها بيديها فى حقل أبيها، كانت جدتى هذه من المهابة حتى أن الرجال كانوا يقفون لها، وكانت ضخمة الجثة، لها ردفان لم أر مثلهما فى الناحية، كنت فى طفولتى أنظر إلى ردفيها متعجبًا، وكنا نحن الصغار نسخر منه فيما بيننا، عندما كنت صغيرًا كانت هى عجوزًا، لكنها كانت لا تزال تحتفظ بقوام فتى وقوى، وكان صوتها

arabworldbooks.com

يرن فى الدار فلا يرد عليها أحد من أبنائها، لكنها بالطبع لـم تكن فى نفس قوتها أيام شبابها. أبى أخبرنى أنها كانت قادرة على أن تحمل شوال الأرز الكبير وحدها وتضعه فى مطرح الخزين، كانت تقوم فى الصباح تحلب الجاموسات الـثلاث، وتشرب مثرد اللبن كاملاً غير منقوص، وتحمل باقى اللـبن لمطالب الدار الأخرى، ورغم وجود والدها وأمها وزوجـات أخوتها، لم يكن هناك من يقوم على الدار جيدًا مثلها، وعندما تزوجت لأول مرة كانت تكره زوجها، وكانـت إذا خبطـت رجلاً بقبضة يدها الممتلئة يقع، فكان زوجها يخشاها.

ما علينا، جاء الهجانة إلى السوق وهـى جالسـة، وكانـت لضخامتها لا تستطيع الجرى كما يفعل معظم من فى السوق عندما يأتى الهجانة. وقف الجندى على رأسها وقال لها:
"هاتى هذا المشمش يا امرأة."

"لم يكن أحد يجرؤ أن يناديها بامرأة سوى زوجها، وفى هذه اللحظة كان أخوها ــ خال والدى ــ يقف غير بعيد، ينتظـر منها أن تحاول الهرب كباقى من فى السوق، ولـم تطاوعـه نفسه على تركها، فى النهاية هى أخته، لكنها لم تهرب، وإنما صرخت فى الجندى:
"المرأة هو أنت يا ابن الكلب."

arabworldbooks.com

"قبل أن تنتبه كان قد رفع السوط ونزل به على ظهرها، لم يحدث أبدًا فى حياتها أن ضربها رجل سوى أبيها، وفى طفولتها فقط، حتى زوجها لم يستطع يوما أن يضربها، فلما حدث ذلك غلى الدم فى عروقها، وبهت الجميع ووقفوا ينظرون، حتى أن أخاها وقف مبهوتاً لا يعرف ماذا يفعل.

لكن حيرة الجميع لم تدم سوى لحظات فقد اندفعت جدتى مقطفة إلى جندى الهجانة وأمسكت ساقه بكلتى يديها وشدته من فوق الجمل فأوقعته أرضًا، أذهلت المفاجأة والسرعة التى تصرفت بهما الجندى، فلم يستطع أن يأخذ حذره. صرخ الجندى متألما ولابد أنه أصيب بكسر فى مكان ما من جسده، لكنها لم تنتظر وانتزعت السوط من يده وأهوت به عليه. عاد يصرخ يستعين بزملائه، ووجد أخوها نفسه فى موقف حرج، فأسرع إليها يعاونها، وحدث هرج ومرج كبيرين، وانتشر الناس فى السوق وتكالبوا على الهجانة عندما رأوا المرأة وقد أهينت فلم تتهاون فى رد العدوان عن نفسها، ربما لأول مرة منذ زمن يقف أهل القرية للهجانة، كانوا فى الحقيقة يؤثرون السلامة، فما فائدة العناد مع هؤلاء الذين يبعث بهم الباشا وعليهم أن يطيعوا. وتحول الأمر بسبب جدتى، فهجم الجميع على هؤلاء الجنود الهمج، وكان يوما مشهودًا، استرد فيه أهل القرية بعض كرامتهم الضائعة، وقُتل كثير منهم، لكن

arabworldbooks.com

قُتل كثير من الهجانة أيضا، ولولا ستر الله لقتلا كلاهما – جدتى وأخوها – فى ذلك اليوم."

قال آبا محمد:

"لكن هناك المزيد عن زوجة جدك هذه، ألم تحبس زوجها فى الصندوق؟"

ضحك البستانى حتى كاد يستلقى:

"كيف؟ بالله عليك أن تحكى لنا هذه يابا على!!"

قال آبا على:

"جاى لكم فى الكلام، بعد هذه الحادثة نزل الجيش البلدة يبحثون عن المرأة التى فعلت ذلك ولم يدلهم عليها أحد، راحوا يأخذون الناس واحدًا بعد الآخر. كان زوج مقطفة من خارج العائلة، زوجها أبوها منه غضبًا عليها عندما عصت أمره ذات يوم، وكانت تكرهه، وإذا عصى لها أمرًا توسعه ضربًا، ولم يستطع أبدا أن ينجب منها، ويبدو أنه لما وجد الجنود يبحثون عنها، قال فى نفسه هذه فرصة لأتخلص من تلك المرأة اللعينة التى فى دارى، دلّهم على مكانها، وأخذهم معه. تركهم خارج الدار، فحتى دناءة عنصره ورغبته فى الانتقام مما تفعله به جدتى لم تكن لتدفعه إلى إدخال غرباء على زوجته دون أن يطمئن إلى حالها. فدخل يدعوها

arabworldbooks.com

للخروج إليهم. كانت نبرته ساخرة وفهمت مقطفة ما حـــدث، فأمسكت به وأدخلته فى صندوق ثيابها الكبير وأغلقته عليــه بالقفل وغادرت الدار من باب الزريبة الخلفى، واتجهت إلـــى دار أبيها. بعد ذلك طلقها أبوها منه، وتزوجها جدى وكـــان ابن عمها. وأنجب منها أطفالاً كثيرين منهم أبى."

عندما كان يتوهج آبا على كان يسحب الربابة من مخلاتـــه، ويبدأ فى العزف عليها، وكان يروى قصة الزنـــاتى خليفـــة، وقصة عزيزة ويونس، وأحياناً كان يعزف فقـــط، فتطـــوف أصابعه بأوتار الربابة، ويصبح الجميع متشوقين للرقص على أنغام ربابة آبا على.

وكانت هذه اللحظة التى يقوم فيها البستانى إلى الرقص، يقف فى وسط المجموعة، يضرب كعبيه ببعضهما، ثم ينطلق، كان يحاكى خطوات الخيل، وتحليقات الصقور، ولم يكن يستطيع أن يجاريه فى الرقص سوى البنا، ابنه على أية حال.

وضع آبا على الربابة، وسكن. عاد البســـتانى والبنـــا إلـــى مجلسهما، وساد الصمت لحظات، وأخيرًا قـــال آبـــا محمـــد بصوت يبدو آتيًا من أعماق الليل:

"تعرف ياواد يا على، إنت غلبتنى!!"

القاهرة - ١٩٩٧

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

وقرن فى بيوتكن

وقفت سيدة مسنة بجانب مقعده، وحل به تعب اليـوم كلـه، والحافلة تهتز ترج رأسه رجًا. ماذا فعلت أمينة يا ترى؟ لابد أن تكون أفسدت كل المجهود المبذول فى اليوم السابق وهـو جالس على رأسها لتحفظ الكلمات الجديدة، ما أصـعب هـذا الوقت!!

مر به عبد البديع فى المكتب فوجده منهمكًا فى لصق وريقات تمغة زرقاء وحمراء وصفراء على إحدى الأوراق الواقـف أمامه صاحبها ينتظر منه الانتهاء من هـذا الإجـراء، ثـم المرور بالقلم الأزرق عليها لكى لا تصلح للاسـتخدام مـرة أخرى.

قال عبد البديع ضاحكًا: "أين أنت يا رجل؟ ألا ترغب فى أداء ما عليك من ديون؟ يقول سعيد أنك لن تتمكن مـن هزيمتـه مرة أخرى! أما محمود فهو يقول أنك ستكون ذا فائدة عظيمة كل مرة، لأنك الوحيد الذى سيدفع الحساب، وعندما تغيبـت اليومين السابقين عاد فقال: ألم أقل لكم؟ لقد هرب لأنه عرف أنه هو الذى سيدفع الحساب."

* * *

arabworldbooks.com

ابتسم ابتسامة باهتة، اهتزت الحافلة، مطـــب أو مـــا شـــابه. بطرف عينه عاد ليلمح السيدة الواقفة، اهتزت وهى تحـــاول أن تتماسك وأوقعت شيئًا كانت تمسكه بيدها، مال ليأتيها بهذا الشيء، سبقته نظرته ليجد أنه مجرد منديل ورقـــى تافـــه لا يستحق، عاد ليعتدل، ونظر إليها.

مسنة هى، ليست مسنة جدًا على أية حال، فهى قادرة علـــى الوقوف فى الحافلة. طبعًا قادرة، وإلا لماذا خرجت من بيتها الآن، ثم لماذا تخرج النساء؟ ولماذا لا يقرن فى بيوتهن؟ لـــو استقرت النساء فى البيوت لما كانت الحافلات بهذا الازدحام، ثم لكان هذا أفضل بالنسبة لتربية الأبناء وراحة الرجل الذى يعود إلى بيته فلا يجد من يهتم به ويرعى شئونه كما يجب.

امرأته لا تهتم به مطلقًا، لا يسمع منها إلا صياحها الدائم وبلا كلل، طوال اليوم مشغولة بطلبات العيال. فى الصباح تـــوقظ الجميع وتعد لهم الإفطار، حتى على مائدة الإفطار ليس لديها الوقت لتتحدث إليه، فهى تعد الساندويتشات التـــى ســـيأخذها الأولاد فى حقائبهم، وبينما ينزلون تكون قد انهمكت فى لـــم الغسيل من الشرفة وهى غاضبة من كل شئ، وتطلب منـــه الإسراع فى الاستعداد للذهاب. وبينما يرتدى ملابسه تكـــون هى قد وضعت الملابس مطويـــة فـــى الإدراج، واســـتعدت للخروج. وبينما ينزل تكون تسبقه على السلم لتلحق بالحافلة.

arabworldbooks.com

وعندما يعود من عمله متعبًا يجدها قد عادت مــن عملهــا، وأحيانًا يعود قبلها، لا يعرف ماذا يفعل حتى تعود هى وتعــد طعام الغداء، وعادة يعود الأولاد فى نفس الموعــد جــوعى ومتعبين مثله. وما أن ينتهى الغداء، حتى تبدأ مشــاغل كــل يوم. تقوم بحمل الأطباق إلى المطبخ وتنشغل فيه تعد طعــام اليوم التالى. وبينما يجلس الأولاد فى المساء إلى دروسهم، لا يجد ما يفعله سوى أن يجلس أمام التليفزيون، بينما هى مــا زالت تعد الغسيل الذى ستقوم بغسله. وأحيانًا، إمعانًــا فــى الابتعاد عنه، تجلس معه أمام التليفزيون، ولكن وهى تضــع أمامها كومة من الثياب التى تحتاج إلى إصلاح، فتــق هنــا، وأزرار هناك.

أحيانًا تمر أيام دون حديث بينهما، فكر أنها لو بقيت فى البيت لكان أفضل لهم كثيرًا، لولا ضيق ذات اليد.

قال له صاحبه ذات مرة وهما يتحدثان على المقهى: "مــاذا تعنى بضيق اليد؟ ألا تنفق المرأة فى ثيابها وزينتها ما يزيــد على مرتبها؟ لو استقرت فى بيتها، ألا توفر الكثير من تلــك المصروفات؟"

"ربما!!"

شرد قليلا، ولكن متى اشترت امرأته ثوبًا جديــدًا؟ وهــى لا تتزين فى العادة، ربما عليه أن يجد عملاً آخــر فــى فتــرة

arabworldbooks.com

المساء ليبقيها فى البيت، فى الحقيقة الحاجة تبدو ماسة لعمل آخر فى المساء لسد الاحتياجات المتزايدة للأولاد وكل نواحى الحياة الأخرى، وليس منها ثوب جديد لامرأته.

اهتزت المرأة المسنة الواقفة أمامه مع هزة مفاجئة للحافلـــة، فاصطدمت ساقها بركبته، قالت: "آسفة!"

متعب أنا، قال فى نفسه، متعب وأستحق مقعدًا فى الحافلة بعد يوم من العناء، ثم لماذا لا يقرن فى بيوتهن ويرحننـــا مـــن متاعب خروجهن فى المواصلات؟

تلحق زوجته بالحافلة بشكل كوميدى يوميًا فهى تسبقه دائمًـــا إلى المحطة، ويراها تقفز فى الحافلة المزدحمة حتى لو لـــم يكن هناك مكان لقدم، تندس بين الأجساد المتراصة وتدفع من حولها حتى تختفى فى الازدحام.

هزة أخرى جعلت الواقفين يكادون يفقدون التوازن، نظر إلى خارج النافذة، محطته التالية، قام من مقعده، يحلق بذراعـــه على المقعد لكى لا يجلس أحد غيرها: "تفضلى."

جلست فورا، بينما اتجه إلى مقدمة الحافلة.

القاهرة - ١٩٩٦

arabworldbooks.com

جـوال القمـح

نزل جمعة من السيارة المحملة بأجولة القمح، وأغلق البـاب واستند عليه، وأشعل سيجارة. كان هذا إعلانًا بأنه لن يحمـل شيئًا ولن يساعد فى توصيل القمح من السيارة إلـى داخـل المحل.

كنت أقف فى المحل مع زوجى الحاج سعيد، نزيح الأشـياء لنفرغ مكانًا لوضع خمسة أجولة من القمح هى حصتنا. وكان عم إبراهيم الحارس العجوز يساعدنا. يناولنا أشياء ويتنـاول منا أخرى، المهم أننا انتهينا فى لحظات قليلة من تهيئة المكان لاستقبال القمح.

كان العيد على الأبواب، ولم يبق إلا ثلاثـة أسـابيع وتـأتى عاشورة، والقمح مطلوب فى هذا الوقت من السـنة، لـذلك طلبنا خمسة أجولة كاملة ونحن واثقين أنها ستباع فى وقـت وجيز.

ذهبنا نحو السيارة وحاولنا ثلاثتنا أن نحمل القمح إلى داخـل المحل، كان الجوال يزن خمسين كيلو جرامًا، وقال الحـاج سعيد لجمعة:

arabworldbooks.com

"لم لا تحاول مساعدتنا؟"

نظر جمعة إلينا، ولم يجب، واستمر يدخن سيجارته. كان شابًا قوى البنية، لكن حمل الأجولة ليس من عمله، فهو "سائق لا غير"، هكذا رد فى مرة سابقة على الحاج سعيد عندما سأله نفس السؤال. ويبدو أنه اليوم اعتبر أن مجرد الرد عليه مهمة زائدة ليس من شأنه القيام بها.

حاولنا استخدام طريقة الجرّ على الأرض، لكن هذه العملية تسببت فى قطع الجوال الأول، فاضطررنا إلى حملها سويًا.

لكن جمعة تحرك أخيرًا، حمل أحد الأجولة على ظهره، وذهب به من السيارة إلى المحل. نظرت إليه متعجبة، هكذا شباب اليوم، لديهم الصحة والقدرة، ولا يريدون المساعدة فى شيء.

بعد أن انتهينا، وقف جمعة بانتظار الحساب، والحاج سعيد محاولا التقاط أنفاسه يحاول أن يخرج النقود ويعدها، بينما وقفت فى ركن من المحل أعددته ليكون مطبخنا، وضعت البراد على النار، الأمر يستحق شرب كوب شاى بعد هذا المجهود.

لكن عم إبراهيم نظر إلى الجوال الذى جاء به جمعة، وقال:

arabworldbooks.com

"هذا الشوال ناقص الوزن، انتظر يا جمعة، تعال غيِّر هـذا الشوال."

كان جمعة يتجه إلى مقود السيارة، نظر ناحيته ببرود قائلاً:
"لو عايز تغيره هاته."

قال عم ابراهيم:
"تعاليا، ارفعا الشوال إلى ظهرى لأحمله."

كنا قد نال منا الجهد، حاولنا أن نرفع الجوال إلى ظهره، لكن ما زحزحناه.

جلس عم إبراهيم القرفصاء، وظهره إلى الجوال، رفع ذراعيه وثناهما إلى الخلف وأمسك بالشوال من أذنيه، حمله، ووقف.

ذهب نتبعه بأنظارنا، كنت قد انتهيت من صنع الشاى، فجلسنا نشرب الشاى وننتظر، فلما عاد بالجوال الآخر، أنزله على الأرض ونزل بجانبه، يستند بظهره عليه. وتبسم الحاج سعيد، ملتقطًا أنفاسه هو الآخر، وقال:
"عم إبراهيم لا يتهاون."

arabworldbooks.com

قدمت له كوب الشاى، رفع جفنيه لينظر إلـى يـدى تحمـل الكوب، وقال:

"لحظات يا ابنتى، يبدو أننى كبرت ولابـد لـى أن أسـترد أنفاسى قبل أن أتمكن من.. شرب كوب الشاى."

القاهرة ـ ١٩٩٥

arabworldbooks.com

خـداع البصـر

الوجه يشبه وجه نفرت.

العينان اليقظتان، الفم الممتلئ المحمل بابتسـامة لا تخـرج، الطرحة السمراء المعقوصة خلف الرأس ثم تنسـدل بليونـة على الظهر، الفارق الوحيد هو ذلك الهزال فى الجسد البادى تحت الثوب الأسود، وذلك اللون الكالح فى الوجه.

قالت متسائلة وجسدها يهتز بانتظام مع هزات المترو الداخل فى النفق المظلم:

"هل القادمة هى ... التحرير؟"

بلا مبالاة، وكأن أحدًا لم يسمع السؤال، وكأن السؤال مجـرد حصاة ألقيت فى مجرى مائى تختفى حلقاتها بعد لحظات، إلا ذلك الرجل الجالس ذو الشعر الأبيض وتجاعيد عميقة عبـر الوجنات، التفت إليها بعينين مطفأتين، وأجاب:

"سعد ... باشا."

الإجابة كانت أكثر سخونة من السؤال، وإكثر إثارة لـردود أخرى، هنا فقط انتبه بعض الـواقفين أو الجالسـين، قـال بعضهم:

arabworldbooks.com

"هذه محطة سعد زغلول، التحرير التى تليها."

نشرت الجريدة أمام عينى، وقرأت عنوانًا يقول:

"لا مزيد من الأعباء."

لكن عينىّ قالتا للعصب الذاهب للمخ:

"مزايدة."

وقرأت تحت العنوان نفسه عبارة تقول:

"إن الإعفاءات للمستثمرين تعنى مزيدًا من فرص العمل للشباب."

لكن عينىّ ظلتا على تضليلهما، فقالتا لنفس العصب مرة أخرى:

"تعنى مزايدة."

ورفعتهما نحو السائلة، كانت تحكم طرحتها حول رأسها، وهى تتحرك لتقترب من الباب.

وأعاد راكب ما العبارة قائلاً:

"المحطة التالية هى سعد زغلول."

تنهد الأشيب ذو الوجنات العميقة، تنهد بعمق وقال:

arabworldbooks.com

"سعد باشا زغلول."

نظر الركاب نحوه، ثم عادوا ينظرون إلى اللاشيء اللانهائى بلا مبالاة.

القاهرة - ١٩٩٦

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

وشـــاح الزهـــور

الزهور فى لون البنفسج رقيقة مرتخية على أطراف دقيقــة لأفرع شجرة عارية، عارية إلا من وشاح بنفسجى على قمة رأسها.

تقف الحافلة الصغيرة المسماة بـــالمينى بـــاص فـــى إحــدى إشارات المرور، والسائق يسأل:

ـــ حد له باقى.

ترتفع أصوات المطالبات، عشرة قروش هنا، ســتون قرشـــا هناك.

بجوار السائق وقف ذلك النحيل، رقيق الثياب كمعظم ركاب الحافلات فى أيامنا المُرَّة، حليــق الوجـــه كمعظـــم رجالنـــا البسطاء، باسم الملامح كهؤلاء الذين ينظرون إلى ما خلـــف أفق أيامهم.

كان ذلك النحيل الواقف بجوار السائق يقوم بدور التوصـــيل بهمة ونشاط، وينادى بين الركاب:

arabworldbooks.com

ـ اللى له باقى تانى قبل ما نُجبُر، أنا بانصحكوا وأجرى على الله.

ابتسمت فى داخلى وأنا أرى أمامى من يجرؤ على الابتسام فى أيامنا هذه، تحركت الحافلة عند الضوء الأخضر، وقال أحد الركاب:

ـ أنا لى باقى عشرة جنيهات.

قال فى دهشة وقد لمعت عيناه بمكر برئ:

ـ باقى عَشرة جنيه؟؟

ابتسم الراكب:

ـ باقى عشرة جنيه، نعم.

قال النحيل للسائق :

ـ بيقولك هات باقى عشرة جنيه، دانت مديون للرُكَب ياجدع!!

كانت السيارة تسرع، والشجرة العارية إلا من زهورها تبعد مع الطريق.

القاهرة - ١٩٩٧

arabworldbooks.com

عشـم إبليـس

فى الطرقات المزدحمة لمدينة القاهرة، أسير أحيانًا أتلكأ عند الفتارين وعلى الأرصفة بحثًا عن شىء يدفع الملـل، تلـك اللحظات التى تصيب كل منا أحيانًا فلا يجـد لهـا حـلاً إلا بالخروج من الحالة اليومية الرتيبة الكئيبة التى تطاردنا بـلا كلل. أو من الجلوس لمشاهدة آلات التعذيب تبطش بعشـرات ومئات البسطاء فى هذا العالم، فى مشاهد تتكرر حتى تتحول إلى مجرد مشاهد مملة، رغم ما فيها من بشاعة.

الطرقات المزدحمة لمدينة القاهرة، فى كل ما تجمعـه مـن متناقضات. يشد الانتباه أحيانًا، رغم عدم المبالاة التى تبـدو على السائرين، ذلك السائر الذى قد تجده يسير محدثًا نفسـه، ولا يعبأ به أحد.

السيارات تتبارى فى الاتجاهين غير عابئة بالمارة، والمـارة أيضا ــ بالمثل ــ لا يعبأون، فالطريق متسع ولا يهم. علـى الأرصفة المبقورة، باعة الصحف يفترشـون الأرض، وقـد نشروا صحفهم وكتبهم، فى لحظة غاب فيها رجال التنظـيم المدنى الذين لا يهمهم سوى القضاء على أى مشـهد لثقافـة شارعية. هذا أيضا لا يهم.

arabworldbooks.com

هذا الرجل هناك، شد انتباهى بجسده الممتلئ القصير، ونظارة زجاجها شفاف، وملابس تبدوعلى درجة من الترتيب، كان يغنى.

بخطوات منتظمة يسير، خطوات تنتظم مع إيقاع الأغنية التى يقولها بحرارة.

انتظمت خطواته، واهتزاز ذراعيه، وإيقاع جسده القصير "المدملك". حتى أطراف كُم قميصه "الروز" أيضا، تركت نسمات الخريف المختلطة بتلوث العادم الرمادى تداعبها مع نفس الإيقاع.

رفع عقيرته — الآن أعرف جيدًا معنى هذا التعبير، الآن وجدت بالفعل من يمكن أن يقال عنه أنه .. رفع عقيرته بالغناء.

باعة البضائع الرخيصة المتنوعة من نوع "كل شئ باتنين جنيه" أو "بتلاتة جنيه" إلى آخره — افترشوا بعض جوانب الأرصفة التى قرر ملوك البنية الأساسية يومًا أن يصلحوها فهدموها ونسوا الباقى، أو تم تأجيله لأجل غير مسمى. أرصفة لا يمكنك السير عليها دون انتباه لئلا تصطدم قدمك

arabworldbooks.com

ببعض البلاطات الخارجة عن الترتيب. لا يهم، كان يسير بانتظامه الرائع، وقد "رفع عقيرته" بالغناء.

السيارات المنتظرة بجوار الأرصفة صفًا وصفين تعوق حركة المارة، الذين احتاروا هل يسيرون على الرصيف أم فى نهر الطريق. غير أنه لا يزال ماضيًا. المحال المفتوحة على جانبى الطوار حتى لم يبق مكان لجدار – تقريبا اختفت الجدران وراء الفتارين – محال مفتوحة بشكل عبثى، فالحقيقة أنه لا يوجد من يشترى فى الغالب الأعم، حتى فى تلك المواسم التى كانت العادة أن تمتلئ الطرقات فى وسط البلد بالمشترين للملابس الجديدة وغيرها من اللوازم، حتى فى تلك المواسم لم يعد ثمة من يشترى، حتى وقف عمال المحال على الأرصفة يدعون المارة، يتسولون منهم الدخول. لكن صديقنا ما يزال ماضيا فى طريقه بلا توقف، يرفع عقيرته بالغناء.

مقطع واحد من أغنية قديمة، يكرره، ويكرره:
ياللى بتسأل عن الحياة ... خدها كدة زى ما هيَّه

فيها ابتسامة ...

arabworldbooks.com

ويقطع غناءه هنا بعبارة سريعة بصوت خافت نوعا، هنا كان يحدث نفسه وحسب، قائلا: "ها، عشم إبليس". ثم يكمل :

..... وفيها آه

فيها أسيَّة وحنية.

القاهرة – ١٩٩٧

arabworldbooks.com

أطيـاف الخمـاسين

من ذا، الواقف فى الظلال، الآتى فــى غــبش الخماســين، الراحل فى ضباب الصمت والوحدة.

عند مفرق الطريق البعيد، شبح آتٍ من الظلمة، وأنا أنتظرك. وعندما اقترب لم أعرف من هو.

حاولت إغلاق الأبواب المصنوعة من صفيح صدئ معــوج، لكنها لا تنغلق ولا تحمى من صرير الــريح الآتيــة بعنــف محملة بالرمال الحادة عبر الصحراء، تضرب أنحاء البيــت، تدفع أبوابه ونوافذه بلطمات ثقيلة.

الأرض تتقحّل وتصفرُّ، ولا يبقى إلا بضع شجيراتٍ صغيرة وحشائش. وشجرة واحدة تقاوم بأذرع معروقة بالشقوق.

الطيف الآتى من الظلمة يتدثر بعباءة ســوداء تلتــف حــول صدره ووجهه وتُطَيِّر الريح أطرافها، فيبــدو لــى الخــوف بتقدمه صوب البيت الهزيل الواقف فى مفترقٍ بــين الــريح والطيف.

arabworldbooks.com

أدخل مرة أخرى أحاول إغلاق الأبواب المتآكلة، فى وجه حبات الرمال القاسية الضاربة بأيدى الريح. ألقاك بالداخل. أنت هنا لم ترحل أبدًا، تحمل الطفل الباكى بين يديك وتعنى على قلة حيلتى.

أحمل الطفل وأرضعه. وعندما أنتهى من إرضاعه خوفى ومشقة الحياة، أضعه بجانبى فيتوقف عن البكاء، يغمض عينيه وينتظر معى.

عندما اقترب الطيف، شرب من ماء الزير شربة واحدة، ثم رحل.

وأسفل الزير القديم الكسير تنزل قطرات من الماء، فتنبت حشائش قصيرة طرية تتفتح وسطها زهرة صغيرة صفراء.

جلست بجوار الطفل ألهث الخوف والوحدة بأنفاسٍ متقطعة.

صوتك وحده بقى فى أذنى، ومعالم العباءة السوداء يطيرها الريح تلفك وأنت تغيب.

القاهرة ـــ ٢٠٠١

arabworldbooks.com

حكيت لك

قالت:

ـ كنت أغزل بيدى لأصنع لك كيسًا تضع مخدتك داخله، ورأسك عليه. كنت أغزل لك بكل الحب، وأرسم على غزلى .. شمسًا وزهرة.

قال:

ـ عندما تكتبين، عمقى شخوصك، ودعيها تلف فى دائرة من الضوء الغنى.

قالت:

ـ اليوم وأنت هناك، هل تخفض ستار نافذتك ليلاً أمام النسمات الآتية من الشرق؟ هل تبتعد فى غور الزمن وتنسى؟

قال:

ـ ضعى المياه عند جذر الكافورة. ارويها ارويها.

قالت:

ـ عندما تزهر أوراقى وتنمو ثمارى، هل تنام ملء جفنيك تحتها؟

arabworldbooks.com

قال:

ــ نامى إلى جوارى وستحلمين حلمًا جميلاً.

قالت:

ــ فى كل ليلة أجدك معى، على وسادتى، عيناك تومضان بالضياء، وقلبك يقترب. أحب صوتك البعيد، أحادثك، كما فى كل ليلة طوال أعوام، أحادثك.

قال:

ــ نامى إلى جوارى.

قالت:

ــ نمت إلى جوار حبيبى، وحلمت حلمًا جميلاً، لكنى لم أحك له حلمى، لم أحكه أبدًا.

قال:

ــ أنام اليوم إلى الأبد، فمتى تحكين؟

قالت:

ــ تنام وتبتعد فى مركب الصمت، فهل تنسى أيضًا؟

arabworldbooks.com

قال:

ــ أنام وأبتعد فى مركب الصمت والنسيان، وعندما أكون هناك فى الفراغ، الفراغ المطبق، أسأل نفسى: أما تزال شجرة الكافور الكبيرة تظلل على بيتنا هناك؟

قالت:

ــ أعود كل يوم متعبة، كليلة، ولا أجدك على فراشى، وعندما يزهر المساء قمرًا يانعًا، أنتظر أن تأتينى، لكنك لا تأتى. وعندما يطلق الصباح ضوضاءه، أخرج إلى الشارع المتسع. أبحث عنك كل يوم تحت الكافورة النائمة تحلم مثلى، وأبحث عنك كل ليل تحت مخدتك التى تركتها، وعليها شمس وزهرة.

قال:

ــ إذا حكيت لك حكاية، فاكتبيها على غزلك.

قالت:

ــ إذا حكيت لى حكاية فسوف أضعها تحت جفنى، وأنام عليها.

قال:

ــ إذا حكيت فاستمعى، فاليوم أقول ولا أخفى.

arabworldbooks.com

قالت:

ـ إذا قلت لى الأسرار كلها فسأدفنها فى دولابى، ولن أفتحه لغريب.

قال:

ـ إذا قلت لك الأسرار كلها، فضعيها تحت قلبك.

قالت:

ـ إذا حكيت لى الأسرار فلن أنسى أن أضعها تحت مخدتى وأنام ملء جفونى وأحلم.

* * *

قالت:

ـ فى الصباح سرت فى طرقات المدينة المزدحمة.

نظرت فى وجوه المارة الكالحة بلون الهم، نظرت فى مداخل الطرقات الضيقة، وعلى نواصى الشوارع المتسخة. جلست على رصيف المقهى، أنتظر خروجك من الظلام والوحشة، جلست أحادث من لا يتحدثون، وأخفى أسرار قلبى.

الظلمات لا تنتهى، والطريق المضىء لا يخرج من باب الحلم.

arabworldbooks.com

أعرف أنك هناك فلم لا تأتى؟ أعرفك وأنــت تجلــس فــى الأغوار البعيدة. لا أستطيع أن أقولك، لا أستطيع أن أكتبــك. قلبك فقط ينبض لى، عيناك فقط تريانني ولا أراهما، عينــاك تنتظران، لكن الظلمة تلفك، واليوم يطول بلا طائل.

القاهرة ــ ١٩٩٨

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

الزمن الآخر

انهارت جدران الحلم.

وانفتحت عن يوم أغرب.

لم أنم الليلة، فاليوم تتم رموز الرؤيا، وينفتح الباب الممنوع، أخطو داخل أرضٍ أخرى، أغمس قدمى فى ماء البحر المسحور، وأرى تمائم حلمى تمنع عنى أخطار السفليين المنتظرين قدوم الفرسان الآتين من خلف الباب.

أفتح عينىَّ وأنظر، نخلاتٍ تطرح فاكهةً لم أرها من قبل، وأشجارًا لم ألمس ما تثمر أبدًا، إلا تلك الشجرة، تلك الشجرة عاشت معى يومًا، أعرفها إلا أنى لا أذكر أين، ولا كيف، ولا حتى فى أى زمان.

* * *

انهارت جدران الحلم.

وانفتحت عن يوم أغرب.

arabworldbooks.com

اليوم نخرج من قضبان حبست أفق الرؤيـــة، ونســـير فـــى طرقات مزدحمة، أطفال ورجال، ونساء، حافلات مســـرعة وضجيج ترام، وصراخ الباعة ولافتات ملونة بـــين بنايـــات كالحة وشوارع مُغبَّرة.

* * *

اصعد معنا، نلحق بطريق آخر، فى يوم آخر. فاليوم عبوسٌ لا يُثمر، والأشجار الباقية هنا لم يلحقها شعاع الشمس، فلـــم تورق. وما وصل إليها ماء النيل، فمدت أذرعها تبحث عـــن شيء آخر لا تعرفه قد ينقذ الجذع المتشقق والجذور الحيرى بين الإسفلت الأبكم.

اصعد معنا نلحق بترام الغربة، نخرج مـــن يـــوم لا يثمـــر. لا تتخلف، فهذا درب اللاعودة. اصعد معنا، لا تذهب نحـــو التيه، البادى خلف بنايات الموت المغبرة.

لو تأتى، قد نخطو نحو اليوم الموعود، فـــى الأرض الحلـــم الجاثم فى الذاكرة الحيرى، قد نفتح باب المجهول، قد نخترق جدار النسيان.

* * *

arabworldbooks.com

انهارت جدران الحلم.

وانفتحت عن يوم أغرب.

اليوم نقف بلا كللٍ فى طابور الخبز، البائع يعطى الخبز، فلا يكفى، والناس تعد الأرغفة ولا تنظر. عيــون زائفــة، فــى محاجر ساكنة، فى وجوه كالحة، لا تتحدث بشىء. الأرغفــة السمراء قليلة، كليلة. والطابور يسير. وعندما حان دورنا، لم نأخذ شيئًا، نفذ الخبز، وما عاد لدى البائع شىء يعطينا. قطع النقد الصفراء فى أيدينا ما عــادت تشــترى الخبــز، ومــا الجدوى؟

* * *

لا تبتئس، سوف نرى دربًا آخر، وسنجد طريقًا، اليوم الآخر سوف يأتى، الزمن الآخر سوف يكون.

لولا أنك لم تأت بعد.

نقف على رأس الطريق ننتظر، والوقت يمر. وخوف متاهة الطرق الممتدة يملؤنى، حتى كان علينا أن نبحث عنــك .... أجرى فى الطرقات المزدحمة، أدفع أصنام البشر السائرة فى كل الاتجاهات، عيونهم متحجرة، وآذانهم لا تسمع، كل منهم

arabworldbooks.com

يحمل خبزه القليل إلى صدره، وأنا لا خبز معـــى. أجــرى، صرخاتى تشق الضجيج، أناديك. أصرخ، قلبى ينشق ويندفع إلى حلقى، ينطلق مع الصرخات. أناديك، أطفال خرجوا من بطن الأرض، يجرون أمامى وخلفى ويسبقوننى إليك.

وحينَ أتيت.

من داخل جدران الموت الكالحة الصفراء المغبرة.

كانت خدوش المقاومة على وجهك ويديك. حزنك أوجعنـــى، عيناك بنظرات منكسرة وسؤال دائم لا يطفر مـــن عينـــك، أوجعنى.

* * *

عُدْ.. لى.

هيا نرحل من هذا اليوم الغريب، هيا نفتح باب الحلم الممنوع ونخرج، نأتى إلى دنيا أخرى، دنيا لا نعرفها.

السويرقية ١٩٩٣

arabworldbooks.com

صدر للكاتبة :

أن تنحدر الشمس	مجموعة قصص	الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٢
طعم الزيتون	رواية	المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠ طبعة ثانية: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢
رحلة السمان	رواية	دار ميريت، ٢٠٠٥

الترجمات :

فلاحو الباشا	تأليف كينيث كونو	المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠
قصص برازيلية (بالاشتراك مع خليل كلفت)	تأليف مجموعة من الكتاب	الكويت، ٢٠٠٠
أرض الحبايب بعيدة	تأليف ماريلين بوث	المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢
امرأة محاربة	تأليف ماكسين هونج كنجستون	المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥
المذنبة	تأليف مارجريت أتوود	المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥

arabworldbooks.com

الفهــرس

الــزمن يمــر	٥
كافورتان	٧
ثلاث أوزّات وفرخ وحيد	١٣
الســنترال الآلــى	٢٣
بيت العانس	٣٥
عـــــودة	٤٣
وجه الزمن	٥١
ربابة .. "آبا على"..........................	٦١
وقرن فى بيوتكن	٧٥
جوال القمح	٧٩
خداع البصر	٨٣
وشاح الزهور	٨٧
عشم إبليس	٨٩
أطياف الخماسين	٩٣
حكيت لك..........................	٩٥
الــزمـــن الآخــــر	١٠١

arabworldbooks.com

بيت العانس

"قل هذا لمن لا يعرفك، ودعك من هذه التمثيلية السخيفة، أنت متعب فقط لأنك لم تستحم منذ مدة، منذ متى لم تضع المرأة الماء على جسدك ولم تدهنه لك بالطيب؟ ولم تدلك بدنك بيديها؟ هل أقنعتك بأنك عجوز خرف لا تصلح؟"

اللوحة لمارك شجال ■ تصميم الغلاف عمرو الكفراوى

الدار